فهم القرآن

بين

القواعد الضابطة والمزالق المهلكة

دكتور

رمضان خميس زكي الغريب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

في جامعة الأزهر وكلية الشريعة والدراسات الإسلامية

جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم العالم المجاهد

الأستاذ الدكتور صلاح سلطان

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ([1])، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الذي جعله الله بيانا علميا وعمليا لكتاب الكريم، فقال سبحانه: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ([2]))، وبعد..

فإذا كانت الأمور بمقاصدها فإن رسالة القرآن تبدو واضحة للعيان تعبر عنها آياته الكريمات، ومن ذلك قوله تعالى:

1) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ ([3]).
2) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ ([4]).
3) ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ([5]).
4) ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ﴾ ([6]).

القرآن إذن كتاب هداية يبدأ مشوارها بالتلاوة الصحيحة والفهم الدقيق والتزكية الإيمانية لنكون ربانيين ولنحكم العالم بما أنزل الله، فالغاية من إنزال القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ثم تكليف الإنس والجان بالعمل به أن يكون هداية لا ثقافة فقط، وليس هداية إلى الطريق القويم وإنما للتي هي أقوم، وليس فقط للعمل الحسن وإنما كما قال تعالى: (– الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ)([7])، وليس لنقول كلاما حسنا فقط؛ وإنما كما قال تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا)([8])، وليس لأن تكون أمة الإسلام أمة من الأمم؛ وإنما لتكون الأمة الأقوى

---

[1] - الكهف آية 1.
[2] - النحل: 44.
[3] - الإسراء: 9.
[4] - البقرة:151.
[5] - آل عمران:79.
[6] - النساء:105.
[7] - الملك:2.
[8] - الإسراء 53.

عقيدة وأخلاقا، سلوكا وحضارة كما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)([1])، ولم ينزل القرآن على قلب سيد الأنام ليكون دين الإسلام دينا من الأديان وإنما ليكون الأظهر والأقوى في العالم كله كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)([2])، وقد تكرر هذا المعنى ثلاث مرات في القرآن الكريم في سور: التوبة والفتح والصف، وهذا كله مرهون بأن نفهم القرآن لفظا ومعنى، نورا وهداية، ثقافة وحضارة، عزة وقوة، حُكما وحكمة ومقصدا، عقيدة وأخلاقا وتشريعا، ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث القيم الذي يرجع بنا إلى مرحلة ما قبل قراءة القرآن؛ فإن من يصلي أو يطوف بالبيت بغير وضوء فصلاته وحجه باطلان، وإذا صامت المرأة الحائض فصومها خداج، فصارت الطهارة شرطا لقبول هذه الأركان، وأحسب أن فهم القرآن شرط لإدراك رسالته، فنحن أمام نوعين من الناس في فهم القرآن هما:

الفريق الأول: فريق يفهم القرآن سواء آمن به أم لم يؤمن:

ومن هؤلاء عرب ومشركو قريش الذين قال لهم النبي (صلى الله عليه وسلم): (قولوا كلمة تدين لكم بها العرب وتملكون بها رقاب العجم)، فقالوا: بل عشر كلمات نقولها: قال:(قولوا لا إله الله تفلحوا، فقالوا: أما هذه فلا نقولها)([3]).

ونحن الآن أمام "دراويش" يقولون لا إله إلا الله في اليوم مئات أو آلاف المرات وسلوكهم أبعد ما يكون عما تردده أفواههم، أما عرب الجاهلية فقد كانوا يدركون معنى كلمة التوحيد، فيتخافتون ويأتون في الليل ليستمعوا إلى القرآن من النبي صلى

---

[1] - البقرة:143.

[2] - التوبة:33.

[3] - بلفظ قريب منه : المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري, ط دار الكتب العلمية بيروت , ط أولى , ت مصطفى عبد القادر عطا: 1/61.

الله عليه وسلم وأبي بكر وغيره، وقد أجاد الوليد بن عتبة – رغم كفره – بوصف القرآن: (إن له لحلاوه، وإن عليه لطلاوة...ولا يعلى عليه).([1])

ولما قرأ عمر بن الخطاب فواتح سورة طه تحول من رجل يريد قتل محمد إلى رجل ينقل الجماعة المستضعفة المستترة في دار الأرقم إلى جماعة معلنة تطوف شوارع مكة وتغشى المسجد الحرام، عندما قال:(ألسنا على الحق ....فلم نعط الدنية في ديننا)([2]) ، ونحن عندنا حفاظ يتوارى المسلم خجلا من سلوكهم.

الفريق الثاني: يؤمن بالقرآن ولا يفهمه:

ومن هؤلاء عشرات الملايين وليس الآلاف الذين يحفظون القرآن دون فهمه، ومئات الملايين الذين يقرؤونه ويستمعون إليه ولا يفهمونه، وانتشرت مراكز تحفيظ القرآن في كل مكان من العالم الإسلامي أو الغربي، وإنني أكتب هذا التقديم من فرانكفورت، وفي مسجد واحد وهو طارق بن زياد 240 طفلا وشابا ورجلا في مكتب تحفيظ القرآن، فلو ألحق الحفظ بالفهم والفهم بالتزكية، والتزكية بالدعوة لتغير العالم كله، لكننا نصبٌّ جل اهتمامنا على حفظ النصوص دون فهمها، وترديد المتون دون إدراكها، حتى إن إماما أعجميا يسمونه الحافظ في أحد المساجد في ولاية تكساس– أمريكا، وقف يدعو بالناس في القنوت ليلة القدر فأورد كل ما جاء في القرآن من أدعية ومن جملة ما دعا به: (إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)([3]) وقد أمَّن المسلمون وراءه!!.

بل وقف إمام عربي في إحدى دولنا الإسلامية يقرأ عليهم آية النحل: (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ)([4]) فقرأها "من تحتهم"!! فصحح له أحد المصلين في الصلاة فأعاد الخطأ نفسه، فقال له بعد الصلاة: يا مولانا كيف يخر السقف من تحتهم؟! الواحد لو مش حافظ يفهم!!.

---

[1] - النهاية في غريب الحديث والأثر , لأبي السعادات بن الأثير, ط: المكتبة العلمية بيروت 1399هـ, 1979مـ, تحقيق طاهر أحمد الزاوي, محمود الطناحي, 3/302.

[2] - المعجم الكبير , للطبراني, ط: مكتبة العلوم والحكم, ط الثانية 1404هـ, 1983مـ, 20/9.

[3] - آل عمران:35.

[4] - النحل : 26.

ونحن هنا نتفق مع الباحث على أهمية الحفظ بشرط أن يكون مقرونا بالفهم والعمل وتعليم القرآن، ومن هنا كان من اللازم والضروري أن نعدَّ المسلمين لمرحلة ما قبل الدخول على القرآن حيث يحتاج هؤلاء إلى العُدة التي تمكنهم من فهم القرآن، وفي هذا السياق يأتي بحث الأخ الكريم والباحث المدقق الأستاذ الدكتور: رمضان خميس زكي الغريب بعنوان: "فهم القرآن بين القواعد الضابطة والمزالق لمهلكة".

وقد تمتع هذا البحث بمزايا عديدة أهمها ما يلي:

1. التقسيم المنهجي الدقيق المترابط، حيث جعل المبحث الأول بعنوان: "الفهم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية"، وفي المبحث الثاني وضع قواعد الفهم، وقد أورد فيه إحدى عشرة قاعدة ضرورية لفهم القرآن، ثم عاد من التنظير والتحقيق إلى الواقع الأليم فكان مبحثه الثالث: "عقبات في طريق الفهم"، ولم يدعنا حيارى: ماذا نفعل في هذه المعضلة؟ بل وضع لنا حلولا عملية في المبحث الرابع تحت عنوان: "معينات الفهم" فجمع بين التنظير والنزول إلى الواقع ووضع الحلول المناسبة.

2. الأمانة والدقة في عزو النصوص إلى أصحابها وتوثيق المعلومات وتخريج النصوص من مصادرها وأصولها.

3. جاءت عبارة الباحث سلسلة سهلة رقيقة تبدو فيها روح التشبع بالقرآن، وهذه واحدة من عباراته ومقاطعه لعلَّها تدل على تأثره وتضلعه بنظم وأسلوب القرآن حيث يقول: "ذلك أن الله– تعالى– خلق الإنسان, ووضع له نظاما يضمن له العز في الدنيا, والسعادة في الآخرة, هذا النظام هو القرآن الكريم, بأوامره, ونواهيه, وإرشاداته, وتوجيهاته ,فإن استطاع الإنسان أن يفهم القرآن الفهم الصحيح عز في الدنيا, وأعمرها, وارتفق خيرها, وبنى حضارتها, وصار– بحق خليفة الله في أرضه, وأهلا لهذا التكليف, ومحلا لهذا التشريف, الذي فضله الله– تعالى– به على سائر الخلق, وإن أخفق – ولا أخفق – في تفهم

هذا النظام, الذي هو موضوع لصلاحه وإصلاحه, كان كمن انطفأ النور أمام ناظريه ,فأصبح في دياجير الظلام, وإن كان ذا بصر شديد, أو رأي رشيد, أو عقل سديد, فلن يصل إلى مبتغاه, ولن يهتدي لهداه, وكان كمن قال: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء, فنودي لا عاصم اليوم من أمر الله), وأصبح في عداد المغرقين؛ لأن الضوء الكاشف خلاه ,والهادي البصير ودعه وقلاه, وصار مثله" كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون".

وإذا كان لي من إضافة إلى الوسائل العملية التي تعين على فهم القرآن في بحث الشيخ رمضان فهي ضرورة تعلم اللغة العربية؛ فإنها هي الوعاء الذي به نزل القرآن ويتلى القرآن ويفهم القرآن، ولذا كان من شروط فهم نصوص القرآن أن تعرف اللغة العربية وقواعدها وآدابها، وتمتلئ كتب أصول الفقه بأبواب كثيرة عن قواعد الاستنباط اللغوية مما نحتاج إليه اليوم قبل أي وقت مضى لنفهم النصوص كما أنزلها الله تعالى ولا يكون الجهل باللغة حاجبا دون معاني القرآن السامية ومقاصده العالية، وتعلم اللغة العربية لعموم المسلمين واجب لفهم الرسالة العامة للقرآن، وهي أوجب بمستوى أوسع وأعمق وأدق للعلماء المجتهدين.

أدعو الله عز وجل لفضيلة الشيخ الدكتور الباحث رمضان خميس أن يكتب له القبول الحسن عند الله، والتغيير للأحسن عند الناس ليعودوا إلى القرآن بالعقل فهما وتدبرا، وبالقلب إحساسا وتأثرا، وبالنفس إصلاحا وتغيرا، عسى أن نسعد نحن ونسعد العالم حولنا بالقرآن واتباع هدي سيد الأنام صلى الله عليه وسلم.

والله ولي التوفيق..

أ.د. صلاح الدين سلطان

فرانكفورت

6 جمادى الآخر 1431 هـ

2010/5/21م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله, والصلاة والسلام على رسول الله, محمد ﷺ وآله وصحبه ومن والاه, اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا, ونلوذ بحولك وطولك وقوتك؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين, اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا, وأفعالنا, وحركاتنا, وسكناتنا, فيك لك خالصة؛ إنك على كل شيء قدير أما بعد :

-1-

فإن كتاباً من الكتب السماوية أو الأرضية لم يلق من العناية والاهتمام مثلما لقي القرآن الكريم, فقد تفرد هذا الكتاب الكريم بعناية أهله به ,عناية فاقت الحصر, وزادت عن حد الكفاية والحاجة بمراحل طوال, وآماد بعاد, فقد عدوا سوره وآياته, وكلماته وحروفه, وسجداته, وتواتر ذلك جيلاً بعد جيل, وقبيلاً بعد قبيل, من لدن نزوله على قلب المصطفي ﷺ قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان إلى الآن, إلى أن تقوم الساعة.

وما ذلك إلا جزء من أجزاء وعد الله تعالى بحفظه بقوله: **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**" [الحجر: رَمَضَان], حتى بلغ حد العناية أن يقول الجيل الرائد: «سلوني عن كتاب الله فوالله ما تسألوني عن آية إلا وأن أعلم فيمن نزلت ومتى نزلت وأين نزلت"([1]).

-2-

[1] – المقولة لعلي بن أبي طالب, انظر: تفسير الصنعاني, لعبد الرزاق بن همام الصنعاني, 3/ 241, ط: مكتبة الرشد, الرياض, ط أولى,1410هـ , ت/ د. مصطفى مسلم, والإتقان: 2/ 493.

ولم يكن هذا الجهد من الجيل الأول في حفظ القرآن الكريم والحفاظ عليه إيعاب ذاكرة مجردة, أو استظهار قلب غافل, بل تبع ذلك الحفظ الذي لا ينخرم, والاستظهار الذي لا ينصرم معرفة بمضامينه, وقضاياه, وأمثاله, وقصصه, وأوامره, ونواهيه, وحكمه, وإشاراته, وتلتهم الأجيال المتعاقبة تكتب في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالقرآن الكريم, في مكيه ومدنيه, في إحكامه وتشابهه, في نزوله, وحججه,وفي قصصه, وتصويره, وإعجازه, وبيانه, يستوقفون أنفسهم عند نتائجه, بعد تعرفهم على مقدماته, ويقفون على قضاءه, بعد معرفتهم لأدلته وبيانه, أخرج مسلم في صحيحه أنه لما نزل قول الله تعالى: "**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**" [الأنعام:

الأديان إلى عدل الإسلام)([1])، وما ذلك إلا لانطلاقهم من هذا المصدر الأصيل, الذي هو أول مصادر التشريع الإسلامي الحنيف، ولم يكن أصحاب النبي ﷺ يقصرون هذا المصدر على جانب التشريع, وناحية الفقه بمعناه المحدود الذي انحصرت فيه الأمة بعد ذلك أجيالاً متعاقبة, وأحقاباً متطاولة, بل كان الفهم القرآني لديهم يغزو كل جنبات الدين, وأركان الحياة, حتى قال عبد الله بن عباس ﷺ وأرضاه: «لو ضاع مني عقال بعيري لطلبته في القرآن الكريم فإن الله تعالى يقول: ما فرطنا في الكتاب من شيء»([2]).

وأصبح الصحابة– رضوان الله تعالى عنهم أجمعين– في فترة محدودة, ومدة معدودة من الزمن ينشرون الضياء, ويهدون الناس إلى الله سبحانه وتعالى.

-4-

حتى أتى على المسلمين حين من الدهر تبدلت لديهم المفاهيم, وتغيرت المعاني والمعايير, فأصبحت نظرتهم إلى القرآن الكريم نظرة جامدة هامدة, لا تبني جيلاً, ولا تنشئ حضارة, ولا تؤسس في النفوس الوثبة إلى الإمام, تلك الوثبة التي عاشها السابقون, وبنى عليها اللاحقون, فحققوا في فترات محدودة من الانتشار والهدى والعلم ما يعد معجزة حقيقية في مقياس المنصفين بشهادة أعدائهم قبل أصدقائهم

وشمائل شهد العداة بفضلها والفضل ما شهدت بها الأعداء([3]).

---

[1]– انظر تاريخ الأمم والملوك, 2/ 401, لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري, ط: دار الكتب العلمية, بيروت, ط أولى 14–7 هـ .

[2] – المقولة لابن عباس, انظر روح المعني, 7/ 144, للألوسي, ط: دار إحياء التراث العربي, بيروت.

[3] – قرى الضيف, لعبد الله بن عمر بن سفيان بن أبي الدنيا,ط أضواء السلف, الرياض,ط أولى 1997م, ت/ عبد الله بن حمد المنصورج2 ص 192.

– –

أعداؤنا والقرآن

لقد فهم أعداؤنا مكمن السر, وعماد القوة لدى المسلمين, فسخروا جيوشاً جرارة, وجحافل متكاثرة, لتحول بين المسلمين وهذا الضياء الذي أحالهم من موات حقيق, وسبات عميق, إلى أصحاب نهضة, ورواد حضارة, تجمع بين المادة والقيمة, وتعيد للناس النظرة الصحيحة بين مقولات الدين ومتطلبات الحياة, وليس بعيداً عن أذهاننا كلمات هذا المستشرق الذي ذكر فيها أن المسلمين لن يتفرقوا ما دام فيهم القرآن والكعبة والأزهر» ويقوم غر صغير ليمزق المصحف في هذا المؤتمر فيؤكد له أن الغاية تمزيقه في صدور المسلمين لا من الورق والقرطاس).

وتتابعت جهودهم سيلاً لا ينقطع, وزحفاً لا يتوقف في صور متعددة, وألوان متباينة يظهر بعضها حيناً, ويخفي كثير منها حيناً, ويسخر بعض المسلمين للقيام بالتنفيذ الثالثة الأخرى.

– –

خطتهم في هذا الجانب

من هنا حرص أعداؤنا على أن يصرفوا نظرنا عن القرآن, وفهمه, والحياة معه, حياة فاعلة منتجة, تثمر وتورق وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وساعدهم على ذلك قبول المسلمين, أو كثير من المسلمين, فنجحوا في صرف اهتمامهم بالقرآن من المضمون إلى الشكل, ومن الفهم والتوظيف إلى العناية بتجويده وقراءته, ومن إقامة حدوده إلى إحسان حروفه فحسب, من هنا وجب على المسلمين أن يعيدوا النظر في علاقتهم بالقرآن؛ لينتقلوا مما هم فيه إلى الحال التي

أرادها لهم الله– تعالى – ؛لذا كان هذا الجهد البسيط, والعمل المتواضع؛ إطلالة على أسس الفهم, وقواعد الضبط العقلي التي تعين على حسن الإدراك, وحسن التوظيف على قدر الطاقة البشرية, وتحذيرا من المزالق المهلكة التي يضيع معها الجهد, وتبعثر الطاقة, وسعيا إلى نقل المعرفة من دائرة الفكر والعقل إلى ميدان التطبيق الواعي, والتوظيف السليم .

هذا وقد قسمت هذه الدراسة بعد المقدمة إلى أربعة مباحث وخاتمة, المبحث الأول: في أن الفهم القرآني فريضة قرآنية, وضرورة حياتية, وفيه تحدثت عن أهمية فهم القرآن, ووجوبه, والمبحث الثاني: في قواعد فهم القرآن, وانتخبت منها عددا من القواعد التي تضبط فهم الإنسان للقرآن, وتجعله أقدر على التعامل معه, تعاملا صحيحًا؛ لأن السلوك فرع التصور, وإذا صح الإدراك كان خطوة على طريق التنفيذ والتعامل, وكانت هذه القواعد حول أسباب النزول, وبيئة النزول, والناسخ والمنسوخ, والمحكم والمتشابه, والوقف والابتداء, ومعرفة أخبار العرب وعاداتهم, وعلم أحوال البشر, ومعرفة معهود الخطاب القرآني, وقواعد اللغة العربية, ومعرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية.

وجاء المبحث الثالث حول العقبات التي تقف في طريق الفهم الإنساني للقرآن الكريم, تلك التي تحول بينه وبين الإدراك الواعي, والحكم السليم والإفادة الحقيقية من معين القرآن الكريم, ومن تلك العقبات: الميل إلى نزعة أو مذهب, والنظرة الجزئية للقرآن الكريم, والوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت, أو وضع النصوص في غير مواضعها, أو أن يكون هم الإنسان الكم لا الكيف, وأن يكون غرضه آخر السورة, دون الوقوف عند مفادها, أو أن يكون المرء صاحب قلب مريض لا يعينه على الانتفاع, أو أن يكون لديه تورع واهم, أو تدين مغلوط, وفهم مغشوش, ومثل

الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة دون البناء عليها, أو أن يشغل نفسه بالمبهمات, أو يهمل قواعد التفسير.

وجاء المبحث الرابع في معينات الفهم, وكان من أبرز ما تناوله: المعايشة للقرآن الكريم, وحضور القلب, والمدارسة, وصدق الطلب, وسلامة القراءة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها, واستظهار القرآن, وإدامة النظر فيه, وصلاة الليل, والتحلي بأخلاق القرآن: قولا وعملا, إلى غير ذلك من المعينات التي تجب على طالب الفهم القرآني أن يضعها في حسبانه, حتى يصل إلى مراده, ثم كانت الخاتمة, وفهرس المراجع والمصادر, ثم فهرس الموضوعات؛ سائلا الله- عز وجل- أن يقبل جهدي, ويغفر زللي, ويتجاوز عن سيئاتي.

والله وحده خير مسئول ومأمول,,,,

حائل –المملكة العربية السعودية 12 من شهر شعبان 1427 هـ 2006/9/5

مـ

رمضان

المبحث الأول

الفهم القرآني فريضة قرآنية وضرورة حياتية

قضية فهم القرآن, ووقوف الإنسان على توجيهاته وإرشاداته, وعبره ومثلا ته, وقضاياه في الحياة, ليست أمرا فرعيا يحصله من يشاء, ويهمله من أراد, وليست قضية ثانوية, على هامش الحياة, تحصل في أي وقت أو لا تحصل؛ إنما هي بحق فريضة قرآنية, وضرورة حياتية؛ فهي فريضة قرآنية لهذه الآيات التي تعددت, وألحت في التأكيد على أهمية فهم القرآن "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها"([1])," والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا "([2]), وغير ذلك من الآيات الكريمة, التي تحتاج إلى دراسة مفردة, وهي ضرورة حياتية؛ لأن صلاح الإنسان في معاشه ومعاده رهن بفهمه لهذا الدستور الخالد, والمنهاج القويم؛ ذلك أن الله– تعالى– خلق الإنسان, ووضع له نظاما يضمن له العز في الدنيا, والسعادة في الآخرة, هذا النظام هو القرآن الكريم, بأوامره, ونواهيه, وإرشاداته, وتوجيهاته, فإن استطاع الإنسان أن يفهم القرآن الفهم الصحيح عز في الدنيا, وأعمرها, وارتفق خيرها, وبنى حضارتها, وصار– بحق خليفة الله في أرضه, وأهلا لهذا التكليف, ومحلا لهذا التشريف, الذي فضله الله– تعالى– به على سائر الخلق, وإن أخفق – ولا أخفق – في تفهم هذا النظام, الذي هو موضوع لصلاحه وإصلاحه, كان كمن انطفأ النور أمام ناظريه, فأصبح في دياجير الظلام, وإن كان ذا بصر شديد, أو رأي رشيد, أو عقل سديد, فلن يصل إلى مبتغاه, ولن يهتدي لهداه, وكان كمن قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء, فنودي لا عاصم اليوم من أمر الله, وأصبح في عداد

---

[1] محمد: 24.

[2] الفرقان: 73.

المغرقين؛ لأن الضوء الكاشف خلاه, والهادي البصير ودعه وقلاه, وصار مثله" كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون أو كصيب فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ([1])"؛ لذلك دلهم الله على منهاج الخلاص في الآية التالية بقوله تعالى: " يأأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون"([2]), ولعلك تلمح معي التعبير القرآني واستخدامه لفظ الربوبية, بما تحمله هذه الكلمة من رعاية, وعناية, وحياطة, وأمان.

صلاح الحياة بصلاح النفوس وصلاح النفوس بتفهمها للقرآن

لا ينكر أحد أن محور الحياة وقب ميزانها هو الإنسان, الذي خلق الله– تعالى– من أجله كل شيء, سخر له ما في السماوات وما في الأرض, وسخر له الأنهار بما فيها, وخلق له الحياة وما عليها؛ كي يكون– بحق– خليفته في أرضه, يقيم عليها شرعه, وينشئ فيها حضارة باسم ربه, فإذا صلح الإنسان صلح معه كل شيء في الحياة, ولا يصلح الإنسان هكذا ضربة لازب, أو خبط عشواء, وإنما يصلح بصلاح فهمه للقرآن الكريم, هذا الفهم الذي يختصر على الإنسان الأزمان, ويطوي له المسافات, ويوفر عليه الأيام والأوقات, ولنا في العرب قبل الإسلام وبعده عبرة, فلا يخفي ما كانوا عليه قبلا, وما صاروا إليه بعدا, حين دبت فيهم روح القرآن, لقد (صلحت أنفس العرب بالقرآن, إذ كانوا يتلونه حق تلاوته, في صلواتهم المفروضة, وفي تهجدهم, وسائر أوقاتهم, فرفع أنفسهم, وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها, وهذب أخلاقها, وأعلى هممها, وأرشدها إلى تسخير هذا الكون كله لها, فطلبت ذلك, فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه– تعالى– فيه من أسباب القوة

([1]) – البقرة: 17 –20 .

[2])البقرة: 21.

والضعف, والغنى والفقر, والعز والذل, فهداها ذلك إلى العلوم, والفنون, والصناعات, فأحيت مواتها, وأبدعت فيها ما لم يسبقه إليه غيرها, حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب: (إن الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال: جيل التقليد, وجيل الخضرمة, وجيل الاستقلال, وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد) ([1]) . إن ذلك وإن كان مخالفا لما عهده الناس من تطور وتدرج, إلا أنه ماض على النمط الطبيعي الذي يلتقي فيه الوحي الذي هو من روح الله تعالى, مع الإنسان الذي هو من نفخته: " وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور"([2]) , وكذلك " فإذا سويته ونفخت فيه من روحي "([3]), فإذا التقت النفختان حدثت المعجزات .... لقد أخرج القرآن العرب– عندما فهموه من طور البداوة الموغلة, إلى نسمات الحضارة الباهرة فأصبحوا– وهم بالأمس رعاة إبل وغنم – قادة الدنيا ورواد الأمم, ليس ذلك لخصائص في أنفسهم فحسب إنما أيضا لهذه الروح التي سكبت في أنفسهم أثر امتزاجها بالقرآن, (كان المسلم العربي يتولى حكم بلد, أو ولاية, وهو لا علم له بشيء من فنون الدولة, ولا من قوانين الحكومة, ولم يمارس من أساليب السياسة, ولا طرق الإدارة, وإنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن, فيصلح من تلك الولاية فسادها, ويحفظ أنفسها, وأموالها, وأعراضها, ولا يستأثر بشيء من حقوقها, هذا وهو في حال حرب وسياسة وفتح مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها, وسد الذرائع لانتقاض أهلها, وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به, وتتولى أمره, فالإنسان سيد هذه الأرض, وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده, وليست الثروة ووسائلها من صناعة, وزراعة, وتجارة هي المعيار لصلاح البشر, ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة؛ فإن البشر قد أوجدوا كل وسائل

([1]) المنار: 7/1

[2] الشورى: 52–53 .

[3] الحجر:29 .

الملك والحضارة, من علوم وفنون وأعمال, بعد أن لم تكن؛ فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني, تابعة له, دون عكس, ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد؛ فإنا نحن المسلمين وكثيرا من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدهما من العدم ممن أضاعوهما بعد وجودهما بفساد أنفسهم)([1])

[1] المنار 7/1 .

المبحث الثاني: قواعد الفهم.

إن الواقع المعيش الذي يعانيه المسلمون يصرخ فيهم: أن يعودوا إلى سبب العز والمجد الذي عاشه السابقون, وسادوا به البلاد, وهدوا العباد إلى طريق الهدى والرشاد, بأمر الله عز وجل, لقد كان لذلك سبب ظاهر ظهوراً عرفه الصحابة بعد أن عاشوه, بل عايشوه حقيقة واقعة, وأمراً ملموساً في حياة الناس, وهو قربهم من فهم هذا الدستور الرباني الخالد, إن أوامر القرآن تتوالي على أسماع المسلمين, تأمرهم بالتدبر والتفكر والنظر والاعتبار وتتواتر على أذهانهم, تدعوهم وغيرهم للنظر في مضامين القرآن الكريم, وارتفاق خيره, والانتفاع بتوجيهه, وإرشاده, وحتى يصل المسلمون إلى فهم سليم للقرآن الكريم, وإدراك عاقل لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية هناك عدد من القواعد التي إن رعوها حق رعايتها وساروا على هديها وصلوا إلى بر الفهم السليم ومرفأ الإدراك الآمن لمحتوي القرآن الكريم وهذه القواعد نذكر منها ما يلي:

القاعدة الأولى

معرفة أسباب النزول

لا شك أن معرفة سبب نزول الآية باب عظيم من أبواب فهمها, وطريق قوي من طرق التوصل إلى إدراك مراد الله تعالى فيها– بقدر الطاقة البشرية, والأسباب: جمع سبب, والسبب: ما يتوصل به إلى غيره؛ لذلك سمي الحبل سبباً في قوله تعالى: "**مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ**" [الحج:

«خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت, فنزل بسببها آيات الظهار في سورة المجادلة([1]),

والقارئ أو الباحث الذي يدرك سبب نزول الآية التي يقرؤها تكون لديه القدرة على الفهم الصائب, والإدراك الواعي لمراد القرآن الكريم, فلا يفسر آية بغير وجهها, ولا يضع كلمة في غير بابها, من هنا عنيت كتب علوم القرآن بتأكيد هذه الناحية من نواحي فهم القرآن, واعتبارها قاعدة أصيلة من قواعد الفهم القرآني. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– : (ومعرفة سبب النزول يعين على فهمه؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب, ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وآثارها)[(2)].

من هنا اعتني العلماء بمعرفة سبب النزول, وأفردوه بدراسات خاصة, فألف فيه على بن المديني شيخ الإمام البخاري, والواحدي, النيسابوري, وابن الجوزي والجعبري, وابن حجر, والسيوطي, وغير هؤلاء ممن يطول المقام بذكرهم, كما اعتني به المفسرون في مقدمات تفاسيرهم التي تعد بذوراً لكثير من قواعد الفهم القرآني وأصول التفسير.

ولذلك خطأ الإمام الزركشي من زعم أن أسباب النزول تدخل في باب التاريخ, فقال في برهانه: «أخطأ من زعم أنه– أي علم أسباب النزول أنه لا طائل تحته لجريانه مجري التاريخ، وليس كذلك, بل له فوائد منها: بيان وجه الحكمة الباعثة على التشريع, ومنها تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى قال الشيخ أبو الفتح القشيري– وهو ابن دقيق العيد–:

---

[1] – انظر لباب النقول في أسباب النزول,746,للإمام السيوطي, بهامش تفسير الجلالين,ط:دار المعرفة , بيروت, لبنان.

(2) مقدمة أصول التفسير صـ

«بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ومنها أنه قد يكون اللفظ عاماً ويقوم الدليل على التخصيص؛ فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد بالإجماع, ومنها رفع توهم الحصر, ومنها إزالة الإشكال»[1].فمعرفة سبب نزول الآية يعين على فهم المراد منها, ويعين على دفع الإشكال, حتى قال الإمام الواحدي, «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها».[2]

كما إن إدراك السبب يعين على الحفظ, ويثبت الوحي في ذهن من سمع الآية؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات, والأحكام بالحوادث, والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة, كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء, وانتقاشها في الذهن, وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر, وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس [3]، ويمكن أن تدرك قيمة سبب النزول وأثر معرفته في فهم الآية من نصوص متعددة, فعروة بن الزبير ﷺ وأرضاه يفهم قوله تعالى: **(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ"**[4] [البقرة:

فلما ظهر الإسلام وكسرت الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بهما لذلك, ولأن الله تعالى لم يذكر السعي بين الصفا والمروة في القرآن كما ذكر الطواف([1]). وكما أشكل على مروان بن الحكم فهمه قوله تعالى: "**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**"[(2)] حتى بعث إلى ابن عباس يقول: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون, فقال ابن عباس: إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه) [(3)], والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى,

وخلاصة القول: أن إدراك سبب النزول يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً, ويزيل من الذهن اللبس والإشكال. بل يعين على الحفظ والاستذكار.

---

[1] – انظر صحيح البخاري,2 /635, وانظر سبب نزول الآية في العجاب في بيان الإسباب ج1 ص406, للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر و ط دار ابن الجوزي , الدمام, ط أولى 1997م, ت / محمد عبد الحكيم الأنيس.

(2) آل عمران

القاعدة الثانية: معرفة بيئة النزول

وأقصد ببيئة النزول أولاً البيئة المكانية فغير خاف على مسلم أن القرآن نزل على مرحلتين المرحلة: الأولى في مكة, والمرحلة الثانية في المدينة, ولكل نزول بيئته الخاصة به, وملابساته وأحواله التي إن أدركها قارئ القرآن الكريم وسامعه, ووضعها المفسر في حسبانه وذهنه قصر عليه مسافات كثيرة, في الفهم والإدراك؛ من هنا عني علماؤنا وسلفنا الصالح بإفراد ذلك في دراسات متعددة تحت باب: المكي والمدني في القرآن الكريم, فألفوا فيه ضمن كتابتهم عن علوم القرآن, فلا يكاد يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من الحديث عن المكي والمدني, وانظر في ذلك البرهان للزركشي, والإتقان للسيوطي, ومناهل العرفان للزرقاني, والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة, ومباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح, والشيخ مناع القطان, ودراسات في علوم القرآن للدكتور محمد بكر إسماعيل, وغير ذلك من الكتب التي عنيت بذكر هذا المبحث من مباحث علوم القرآن.

والمكي كما ورد في تعريف العلماء: هو ما نزل قبل الهجرة, والمدني هو ما نزل بعد الهجرة, وهذا هو المختار من التعريفات المتعددة([1])، ولا شك أن إدراك البيئة المكانية لنزول الآية الكريمة يعين على فهمها, وإدراك مراميها ؛ لذلك قال شيوخنا: «معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج لها المفسر لكتاب الله– تعالى–, ممن نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء؛ كي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب؛ ولذلك قال أبو القاسم النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن: «من أشرف علوم القرآن علم نزوله, وجهاته وترتيب ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة ,وما نزل بمكة وحكمه مدني, وما نزل بالمدينة وحكمه مكي, وما نزل بمكة في أهل

[1] – انظر الإتقان: ج1 ص34.

المدينة, وما نزل في المدينة في أهل مكة, وما يشبه نزول المكي في المدني, وما يشبه نزول المدني في المكي" [1], ولهذه القاعدة فوائد متعددة منها: التمييز بين الناسخ والمنسوخ, ومعرفة تاريخ التشريع, ومنها الثقة بهذا القرآن, ووصوله إلينا سالما من التغيير والتزييف, ومعرفة الخصائص البلاغية للقرآن الكريم المكي والمدني ,ولا يخفي على إنسان منزلة معرفة المكي والمدني من القرآن والوصول إلى مراميه.

(1)انظر الإتقان: ج , ص: , المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ

القاعدة الثالثة

معرفة الناسخ والمنسوخ

معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من أسس فهم القرآن وإدراك معانيه؛ ولذا عني به السابقون, وصنفوا فيه, يذكر الإمام الزركشي ذلك في برهانه فيقول: والعلم به عظيم الشأن, وقد صنف فيه جماعة كثيرون, منهم قتادة بن دعامة السدوسي, وأبو عبيد القاسم بن سلام, وأبو داود السجستاني, وأبو جعفر النحاس, وهبة الدين بن سلام الضرير, وابن العربي, وابن الجوزي, وابن الأنباري, وغيرهم... وقد قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كلام الله إلا بعد أن يعرف فيه الناسخ والمنسوخ, وقد قال علي بن أبي طالب لقاص: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا أعلم, قال: هلكت وأهلكت»[1], ومعرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام, خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض فيها إلا بمعرفة سابقيها ولاحقيها, وناسخها ومنسوخها؛ ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية, ويلفتون أنظار الناس إليها, ويحملونهم عليها, ولقد جاء في الأثر أن ابن عباس (ﷺ) فسر الحكمة في قوله تعالى: "**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**"[2] بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه, ومحكمه ومتشابه, ومقدمه ومؤخره, وحلاله وحرامه، ولا شك أن إدراك الناسخ والمنسوخ يقف الباحث والمفسر على السابق والمسبوق من القرآن الكريم, ويطلعه على الأحوال التي نزل القرآن الكريم ليعالجها, وهذه كلها شواهد تحيط الإنسان علماً بالمناخ الذي نزل فيه القرآن الكريم, وتجعله أقدر على توظيف الآية القرآنية الكريمة في مكانها الطبيعي, دون غلو ولا شطط, (إن علم الناسخ والمنسوخ يلقي الضوء ساطعاً على المراحل المتعاقبة

(1) انظر البرهان في علوم القرآن: جﷺ صـ

لنزول القرآن الكريم, ويعين على تتبعها ورسمها بدقة بالغة وهو ضرب من ضروب التدرج في نزول الوحي, ومعرفتنا بما صح من جوهره تيسر علينا تعين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية, وتظهرنا على جانب من حكمة الله- تعالى- في تربية الخلق, وتقفنا على المصدر الحقيقي للقرآن الكريم, وهو الله -تعالى- رب العالمين لأنه يمحو ما يشاء ويثبت, ويوقع حكماً ويبدل آخر, من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن) [1].

فعلم الناسخ والمنسوخ باب من أبواب فهم القرآن فهماً صحيحاً, دون خلط بين المفاهيم؛ لأنه يوضح مسيرة التشريع الإسلامي في المسائل الاجتماعية والتشريعية, ويضع خارطة في ذهن الباحث والمفسر من خلالها يستطيع أن يستبين مواطن خطواته ومظان مطلوبه.

(1) انظر مباحث في علوم القرآن, د صبحي الصالح , صـ ط دار العلم للملاين, ط الرابعة , بتصرف يسير

القاعدة الرابعة

معرفة المحكم والمتشابه

معرفة محكم القرآن الكريم ومتشابهه باب قوي من بواب الفهم الصحيح للقرآن الكريم, وطريق من طرق التوصل إلى إدراك المعني القرآني, عبر وسيلة آمنة, وضابط من الضوابط التي لو راعاها المفسر والباحث والقارئ لنجا من الزيغ والسقوط في فهم غير صحيح, أو رأي غير عاقل؛ من هنا عني العلماء قديما وحديثاً, لهذا الباب في دراسات خاصة, وفي تناولهم لمباحث علوم القرآن, وإطلالة سريعة على فهرس أي سفر من أسفار علوم القرآن ستوضح هذا الأمر ببساطة ويسر.

ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ثلاث, تفيد أولاها: أن القرآن الكريم كله محكم, وهي قوله تعالى: "**الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**"[(1)]

وآية تدل على أنه كله متشابه, وهي قوله تعالى: "**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَّشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**"[(2)], والثالثة تفيد أن بعضه محكم, وبعضه متشابه, وهي قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ"[(3)]

وقد ذكر العلماء وجوهاً وتوجيهات لهذه الآيات الكريمة نختار منها: أن المراد بالإحكام: (أنه رصين ومتقن حكيم, يتحدى الزمن, ولا ينتابه تصدع ولا وهن, ومعني

---

(1)فصلت: مُحَرَّمٌ.

(2) الزمر:

كونه متشابهاً: أنه يشبه بعضه بعضاً, في إحكامه, وحسن بيانه, وبلوغه حد الإيجاز في ألفاظه ومعانيه, حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلمات وآيات في هذا الحسن والإحكام والإيجاز, كأنه حلقة مفرغة, لا يدري أين طرفاها, وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه: أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله– تعالى– , ومنه ماخفيت دلالته على هذا المراد الكريم, فالأول هو المحكم, والثاني هو المتشابه, على خلاف بين العلماء في ذلك, على أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكماً دقيقاً وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان, والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى وما خفيت دلالته.

ومما يظهر لك منزلة هذا الباب في الفهم والتفسير أن تدرك أن آية آل عمران وهي قوله تعالى: "**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**" الآية كانت فارقة بين السلف والخلف في الفهم والتفسير, فقد وقف السلف على قوله تعالى: "**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ**" , وعدو الواو استئنافيه لمعنى جديد, ورأي الخلف أن الواو العاطفة عطفت الراسخين في العلم على لفظ الجلالة (الله) في العلم بالمتشابه, يقول الإمام الزركشي– رحمه الله– في البرهان: (فمنهم من رجح أنها (أي الواو) للاستئناف وأن الوقف على "**إِلاَّ اللهُ**" أن الله تعبدهم من كتابه بما لا يعلمون, وهو المتشابه كما تعبدهم من دينه بما لا يعقلون, وهو التعبدات.., وفهم من رجح أنها للعطف أن الله لم يكلف الخلق بما لا يعلمون, وضعف الأول لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده, ويدل على معنى أراده, فلو كان المتشابه لا يعلمه غير الله لكرر معناه، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه, فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله: "**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ**" جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته, والمفسرون من أمته, ألا ترى أن ابن عباس كان يقول: أنا

من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف " **مَا يَعْلَمهم إلا قليلُ**" [1] وأنا من أولئك قليل)[2]

من هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لتفسير كتاب الله عز وجل.

القاعدة الخامسة

معرفة الوقف والابتداء

(1) الكهف:

ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء معين على معرفة اكتمال المعنى, وفهم المراد؛ لذلك عني به العلماء قدامي ومحدثين, وعدوه علماً مستقلاً من علوم القرآن, وقد مضى بنا قبل قليل مدى الخلاف الواقع بين السلف والخلف من أجل خلافهم في الوقف, وذلك من خلال آية آل عمران..., ونستطيع أن نفرق بين قارئ فاهم للقرآن وقارئ غير واقف على المعاني, من طريقة الوقف والابتداء عند كليهما, فقد تسمع قارئا يقرأ قوله تعالى: "**فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**"[1] ، فيقف على (استحياء) ويبدأ بقوله: "**على اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ**" , فيفيدك معنيين: الأول أن مشيها كان على استحياء, والثاني أن كلامها على استحياء, وما ذلك إلا لفهمه للمعنى المبني على طريقة الوقف والابتداء، وتسمع أخر يقرأ قوله تعالى: "**يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**"[2] , فيقف على قوله: "**لاَ تُشْرِكْ**" , ثم يبدأ بقوله: "**بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**" , فيفدك النهي عن الشرك, والقسم بالله: أن الشرك ظلم عظيم, وذلك مفاد من طريقة الوقف والابتداء, وكم في القرآن الكريم من جمل تحمل هذه الوقفات, حتى عده العلماء علماً من علوم القرآن, لا يكون المرء مؤهلا للفهم إلا به؛ من هنا كثرت عناية السلف بالحديث عن الوقف والابتداء, وصلتهما بالمعني, وأهمية إدراكها, ولم يكن هذا الاهتمام إلا بعد العصور الأولى لأسباب متعددة, منها: أن الوقف والابتداء كان معروفاً لدى الأولين حتى اختلطت الأمور على من بعدهم, فنشط لذلك حكماء أفذاذ, ضبطوا وقوف القرآن وابتداءاته, حسب مقتضيات المعنى, فألف فيه عدد من العلماء, منهم ابن الأنباري, وأبو جعفر

(1) القصص: من الآية:

النحاس, وأبو عمرو بن العلاء, أحد القراء السبعة, والإمام نافع الليثي, أحد القراء كذلك, والإمام ا بن الجوزي, وغيرهم يقول الطاهر ابن عاشور– رحمه الله– : (لم يشتد اعتناء السلف بتحديد أوقاف القرآن لظهور أمرها, وما ذكر عن ابن النحاس من الاحتجاج لوجوب ضبط أوقاف القرآن بكلام لعبد الله بن عمر ليس واضحاً في القرائن المحتج بها.., فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهم؛ لأن عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي فيهم تقوم به الحجة عليهم وعلى دهمائهم, فلما كثر الداخلون في الإسلام من دهماء العرب, ومن عموم بقية, الأمم توجه اعتقاد أهل القرآن إلى ضبط وقوفه؛ تيسيراً لفهمه على قارئيه, فظهر الاعتقاد بالوقوف, وروعي فيها ما يراعي في تفسير الآيات, فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف[1]"، وقد اعتنى العلماء على الرغم ذلك ببيان مواطن الوقف والابتداء, وأنواعه, والوقف المأخوذ عن النبي ﷺ , وكتبوا فيه كتباً مستقلة, وأكدوا على صلة المعني بالوقف والابتداء, بل ذكروا أن الأحكام الشرعية لا تستنبط استنباطا صحياً إلا بتمام معرفة هذا العلم من علوم القرآن, حتى قال الإمام النكزاوي: (وباب الوقف عظيم القدر, جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل, ونقل عن أبي حاتم قوله: (من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن, وبالجملة فالوقف حلية التلاوة, وزينة القارئ, وبلاغ التالي, وفهم المستمع, وشرف للعالم, به يعرف الفرق بين المعنيين المختلفين, والقضيتين المتنافيتين, والحكمين المتغايرين, ومن الضروري للقارئ أن يفهم ما يقرأ؛ حتى لا يغير المعنى حال قراءته, وأن يكون يقظاً متفهماً ما يقرأ ملاحظاً في الآيات وما ترمي إليه مواقع الجمل, دون الالتفات إلى التباهي بطول النفس, ودون الوقوف لأداء معان تتفق

(1) التحرير والتنوير: مقدمة/

والأهواء البشرية, بعيدة عن شرف المعني القرآني وإعجازه [1], ومما مثل به العلامة ابن عاشور من فوائد معرفة الوقف والابتداء وبديع أمثلته له قوله: (إن التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدد المعني مع اتحاد الكلمات فقوله- تعالى-: "**وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا**"[2] إذا وقف على: "**قَوَارِيرَ**" الأول كان (قواريراً) الثاني تأكيداً لرفع احتمال المجاز في لفظ: "**قَوَارِيرَ**" , وإذا وقف على: "**قَوَارِيرَ**" الثاني كان المعني الترتيب والتصنيف, كما يقال: قرأت الكتاب: باباً, باباً, وحضروا: صفا, صفاً, وكان قوله: "**مِّن فِضَّةٍ**" عائداً إلى قوله: "**بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ**"[3] ,

وهذا من روائع ابن عاشور في استنباطاته ولطائفه؛ من أجل ذلك أكد سلفنا على اكتمال المعني لدى القارئ عند قراءته, حتى يفهمه, ويفهم سامعه, فيبدأ بالكلام المتصل بعضه ببعض, ويقف عند تمام المعني, حتى ذكر الإمام النووي في تبيانه: (أن القارئ إذا ابتدأ من وسط السورة, أو وقف على غير آخرها ينبغي له أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض, وأن يقف على الكلام المرتبط ,ولا يتقيد بالأعشار والأجزاء؛ فإنها تكون في ربط الكلام المرتبط, وبعد أن مثل لبعض الأعشار والأرباع التي لا تتم قال: «مثل هذا وشبيهه ينبغي أن يبدأ به ولا يوقف عليه؛ فإنه متعلق بما قبله, ولايعترف بكثرة الغافلين له من القراء, الذين لا يراعون هذه الآداب, ولا يفكرون في هذه المعاني, ومثل ما رواه الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض ﷺ قال:

(1)انظر الوقف والابتداء وصلتهما بالمعني في القرآن الكريم, رسالة ماجستير لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح, صـ ﷺ, بتصرف يسير, وانظر هذه النقول في كتاب الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء, للنكزاوي ,صـ

«لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها, ولا تغتر بكثرة الهالكين, ولا يغرك قلة السالكين», ولهذا المعني قالت العلماء: قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة؛ فإنه قد يخطئ الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال, وقد روي ابن أبي داود بإسناده عن عبد الله بن أبي الهذيل التابعي المعروف ﷺ قال: كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية ويتركوا بعضها» [1], وخلاصة القول أن معرفة الوقف والابتداء من أبواب فهم القرآن, وطريق من طرق بيان المعنى واتضاحه في ذهن القارئ والسامع, وكم رأينا من أناس يقفون على كلمات يؤدي وقفهم إلى فساد المعنى وإضاعة المراد.

القاعدة السادسة

معرفة عادات العرب وأخبارهم

من الأمور اللازمة للمفسر حتى يفهم مراد القرآن, ويعي مرماه, أن يدرك عادات العرب التي نزل القرآن ليتحدث عنها, تلك التي تمثل لهم حياتهم الخاصة,

(1) انظر التبيان في آداب حملة القرآن: صـ

التي تتميز عن حياة من سواهم, وتنفرد ببعض الخصائص والسمات,التي راعاها القرآن الكريم, ووضعها في حسبانه وهو يأمرهم وينهاهم, ويعظهم, ويرشدهم, ويوجههم إلى الصراط المستقيم, فقد كان للعرب مثلاً عادات وأعراف, في علاقة الرجل بالمرأة, ونظرته إليها, في طفولتها, ويفاعتها, وشبابها, ونزل القرآن الكريم يراعي هذه العلاقة, وتلك النظرة, وأنزل لها الخطاب الوافي الكامل, الذي يتناسب مع تلك العادات, واقرأ– إن شئت – مثلاً قوله– تعالي–: وهو يتحدث عن علاقة الأب بولده إن كان أنثي: "**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ ساءَ مَا يَحْكُمُونَ**"[1]، والآية تصور بوضوح وجلاء علاقة العربي بابنته, وترصد تلك الخلفية الاجتماعية التي كان يحياها الإنسان العربي في هذا الزمان، واقرأ –إن شئت كذلك قوله تعالى: "**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ**"[2] ،والآية الكريمة تصور كذلك طبيعة هذا العربي الذي يجعل لله– تعالى– ما يأباه هو لنفسه, ويجعل له الإناث, في الوقت الذي يأبى أن يرضاهن لنفسه, وإذا بشر بهن اسود وجهه, بل ظل مسوداً وهو كظيم، ومن العادات التي رصدها القرآن الكريم في حياة العرب كذلك دخولهم من خلف الدار في الأشهر الحرم, والتي صورها القرآن الكريم بقوله: "**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**"[3]، فكيف يتسنى لمفسر أن يفهم هذه الآية دون أن يفهم عادات العرب في ذلك, فقد ذكر أهل التفسير أن العرب (كانوا إذا أحرموا الحج أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل

---

(1) النحل:

المحرم بيته من بابه ولا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء, وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنموا على ظهور البيوت, واتخذوا نقباً في ظهور البيوت إن كانوا من أهل المدر وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا خلف الخيمة) [1] ,

ومن العادات الاجتماعية والأعراف العربية التي ذكرها القرآن الكريم جعلهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام, وصحح معتقدهم في ذلك فقال- تعالى-: "**مَا جَعَلَ اللهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**"[2], فكيف يقف المفسر أمام هذه الآية دون أن يعرف الخلفية الاجتماعية لها, ودون أن يعي عادات العرب في تعاملهم مع هذه الأشياء البحيرة والوصيلة والسائبة والحام.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال: (البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس, والسائبة التي كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: رأيت عمر بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار كان أول من سيب السوائب، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنى بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأنثى ليس بينهما ذكروا الحام فحل يضرب الضراب المعدودة فإن أكمل ضرا به ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي)[3]

ولو لا وقوف المفسر على هذه العادات والتقاليد العربية التي نزل فيها القرآن الكريم لما فهم الفهم المطلوب.

---

(1) التحرير والتنوير: مُحَرَّمٌ/

وقد عني بجمع عادات العرب وتقاليدهم كثير من العلماء, وتوجهت همتهم إلى تسجيل وبحث جوانب من حياة العرب الاجتماعية, وألفوا فيها كتباً مستقلة, (ومن هذه الكتب الميسر والقداح, لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة, من رجال القرن الثالث, وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب, ونشر في القاهرة سنة هـ , ومنها كتاب أيمان العرب, لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله البصرمي, من رجال القرن الرابع, وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب كذلك، ومنها كتاب أديان العرب، الأصنام، القداح، الكهان، والجن، وما كانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الإسلام، وأسواق العرب, ومعظم هذه الكتب ذكرها ا بن النديم في الفهرست) [1]، ودراسة هذا الجانب من جوانب الخلفية الاجتماعية التي نزل فيها القرآن الكريم من الأهمية بمكان, لإدراك مرامي القرآن الكريم, ومقاصده, ووسائله, فمعالجة هذه الجوانب والعادات, ودراسة المفسر لها, وإلمامه بها تفتح له أبواباً من الفهم, ومدارك متعددة من المعارف التي تمثل شيئا مهما ذا بال من الخلفية الاجتماعية, التي تعين على فهم القرآن الكريم, ومعرفة أخبار العرب كذلك, ولأمر ما كانت الدراسات الاستشراقية تعني برصد العادات, والتقاليد, والأخبار, والمعارف, صغيرها وكبيرها, للأمة التي تريد أن تغزوها؛ فإن هذه الدراسات تمثل جانباً من جوانب الشخصية المعنية, والتي يراد فهمها, وقد ذكر الطاهر بن عاشور –رحمه الله– شيئاً من ذلك في مقدماته للتفسير, وأنكر على من عد معرفة أخبار العرب شيئاً من اللغو فقال: «وأما أخبار العرب فهي من جملة أدبهم, وإنما خصصتها بالذكر؛ تنبيهاً لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو, فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها؛ لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار, للموعظة والاعتبار, لا لأن يتحادث الناس بها في الأسمار,

(1) انظر: بحوث في أصول التفسير, للأستاذ الشيخ محمد الصباغ, صـ

فبمعرفة الأخبار يعرف ما أشارت إليه الآيات من دقائق المعاني, فنحو قوله تعالى: "**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا**"[1], وقوله تعالى: "**قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُود**"[2], يتوقف على معرفة أخبار العرب" [3] فمعرفة أخبار العرب تتيح للمفسر وقارئ القرآن الكريم أن يتصور تلك الحياة الاجتماعية, التي نزل القرآن الكريم فيها, يخاطب العرب بأمرهم, وينهاهم, ويرشدهم, مقراً لبعض معارفهم وعاداتهم, ومقوماً لبعضها الآخر, والشيخ محمد عبده – رحمه الله–, وهو يتناول الحديث عن مراتب التفسير, يذكر أن أعلى مراتب التفسير لا تتم إلا بأمور ومقومات منها: (معرفة المفسر بما كان عليه الناس في عصر النبوة, من العرب وغيرهم؛ لأن القرآن ينادي بأن الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال, وأن النبي ﷺ بعث لهدا يتهم وإسعادهم, وكيف يفهم المفسر ما قيمته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة, أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفي من دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد, بأن يقولوا– تقليداً لغيرهم: إن الناس كانوا على باطل, وإن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة... كلا... لقد روي عن عمر– ﷺ – أنه قال إنما تنقض عرى الإسلام عروة, عروة, إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية, والمراد من أنه نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر, ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور, ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي)[4] ' فلا يتم فهم عظمة هذا الدين, ولا يفهم كتابه المبين إلا بهذه الخلفية الاجتماعية التي تعطي للمفسر تصوراً صادقاً عن حال الناس, وعاداتهم, وطبائعهم,

---

(1) النحل: من الآية:

وقت نزول القرآن, وسحب هذه الخلفية إلى العصور الأخرى, والشرائع التالية؛ حتى يكون الفهم فهماً سديداً بعيداً, عن الانحراف أو الخطأ.

القاعدة السابعة

معرفة علم أحوال البشر

يقصد بعلم أحوال البشر: العلم الذي يتناول طبائع الناس عامة, وأطوارهم, وأدوارهم, واختلافهم؛ فإنه يعرض للخالف ما عرض للسالف, ويمضي على اللاحق

ما مضى على السابق, والتاريخ كما يقولون, يعيد نفسه, والسعيد من وعظ بغيره, والشقي من وعظ بنفسه.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يعني بذكر قصص السابقين, ويصور أسباب بقائهم أو فنائهم, وعوامل قوتهم أو ضعفهم, ووقوف المفسر على هذه المعرفة يعطيه قدرة على الوصول إلى مكنون القرآن الكريم, وإذا كانت القاعدة السابقة تعني بدراسة البيئة الاجتماعية, والخلفية الحياتية للعرب, وهم من نزل فيهم القرآن الكريم, فإن هذه القاعدة تعني بدراسة أحوال الإنسان بصفة عامة, وذلك يتيح للمفسر أن يصل إلى المعنى القرآني بوضوح وجلاء, وقد تناول الأستاذ محمد عبده هذا في حديثه عن الأمور التي لا يتم الوصول إلى أعلى مراتب التفسير إلا بها, فذكر أن من ذلك «علم أحوال البشر ذلك أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب, وجعله آخر الكتب, وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بيَّن فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم, والسنن الإلهية في البشر, قص علينا أحسن القصص, عن الأمم وسيرها الموافقة لسنن من قبلها, فلابد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر, في أطوارهم, وأدوارهم, واختلاف أحوالهم, من قوة وضعف, وعز وذل, وعلم وجهل, وإيمان وكفر.

.. ويقول الأستاذ الإمام– رحمه الله– : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى: " **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**"[1] , وهو لا يعرف أحوال البشر, وكيف اتحدوا ؟, وكيف تفرقوا ؟, وما معني الوحدة التي كانوا عليها ؟, وهل كانت نافعة أو ضارة ؟, وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم؟, لقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية, وعن آياته في السماوات والأرض, وفي الآفاق والأنفس, وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً,

(1) البقرة:

وأمرنا بالنظر والتفكر, والسير في الأرض؛ لتفهم إجماله بالتفصيل, الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً, ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره, لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمه) [1] .

بهذا الوضوح والجلاء بين الأستاذ الإمام- رحمه الله- مدى أهمية دراسة أحوال الناس, وأدوارهم, ومنا شيء حياتهم؛ حتى تعطى صورة صادقة عن القرآن, الذي نزل لصلاحهم, وكشف أدوائهم, وعظة الناس عن خلاقهم, ولا شك أن إدراك المفسر لهذه المعطيات يوسع مداركه, ويقوي نظره إلى الكتاب, ويجعل أخذه أخذاً عاقلاً, مبنياً على أسس ونواميس.

القاعدة الثامنة:

معرفة معهود الخطاب القرآني

نزل القرآن لكريم بلسان العرب, تحدث بحديثهم, وعالج قضاياهم, وعبَّر بلغتهم, على عهد الله- تعالى- في إنزال الكتب وإرسال الرسل, "**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** , وتميز القرآن في خطابه وبيانه, وإرشاده وبلاغه, بتراكيب معينة,

(1) المنار: ﷺ/

وعبارات خاصة, تتبعها العلماء قديماً وحديثاً, ووقوف المفسر على هذه التعبيرات يقفه على فهم دقيق لما يعرض له من آيات بينات، وقد وقف الطاهر بن عاشور على هذه القاعدة وذكرها في المقدمة العاشرة من مقدماته التي قدم بها لتفسيره فقال: «يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن, من نظم وكلمة, وقد تعرض بعض السلف لشيء منها, فعن ابن عباس: كل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر, وذكر ذلك الطبري[1] أيضاً عن الضحاك, وفي صحيح البخاري([2]) في تفسير سورة الأنفال, قال ابن عيينة: ما سمي الله مطراً في القرآن إلا عذاباً, وتسميه العرب الغيث, كما قال- تعالى-: "**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا**"[3] , وعن ابن عباس أن كل ما جاء يأيها الناس فالمقصود به أهل مكة المشركون, وقال الجاحظ في البيان([4]) , وفي القرآن معان لا تكاد تفترق, مثل الصلاة والزكاة, والجوع والخوف, والجنة والنار, والرغبة والرهبة, والمهاجرين والأنصار, والجن والإنس, قلت: والنفع والضر, والسماء والأرض, وذكر صاحب الكشاف, وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد, وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة, ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض, لمناسبة التضاد، وفي الكشاف في قوله- تعالى-: " **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ**"[5] , جيء به ماضياً, على عادة الله في أخباره[6] , وقال فخر الدين الرازي في تفسير قوله- تعالى-: "**يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ**"[7] , وعادة الكتاب الكريم أنه إذا ذكر

---

(1) انظر جامع البيان, عند تفسيره لقوله تعالى :بكأس من معين, ج

أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء في أحوال القيامة, ليصير ذلك مؤكداً لما يقدم ذكره من التكاليف والشرائع[1], ثم مضى ابن عاشور –رحمه الله– يؤكد على هذه القاعدة من قواعد فهم القرآن الكريم, واستيعاب مراده, فإنه تتبع بنفسه هذا النمط من تعبيرات القرآن, فوجده يمضي على طريقة مفردة, ومن هذه التعبيرات التي حصرها ابن عاشور: (أن كلمة هؤلاء إذا لم يجئ بعدها عطف بيان تبين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة, كقوله– تعالي–: "**بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ**"[2] , وقوله: "**فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**"[3] , ومن أساليب القرآن أنه إذا حكي المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال, دون حرف عطف إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى) [4], ولا شك أن الوقوف على أسلوب القرآن الكريم, وانفراداته يقف المفسر والقارئ على خبر عظيم, ويضع يده على مفاتيح الفهم ووسائل الإدراك.

(1) انظر التحرير والتنوير: جـ١ صـ

القاعدة التاسعة

معرفة قواعد اللغة العربية

نزل القرآن الكريم بلسان العرب, وتميز بخصائص تلك اللغة, التي أعلى الله- تعالى- قدرها, وخلد في العالمين ذكرها, بل أنزل كتابه الخالد بها, من هنا كان فهم اللغة وقواعدها ومعرفة أساليبها باباً من أبواب فهم القرآن, ومعرفة مقاصده؛ فإن العربية تميزت بتراكيب معينة عن باقي لغات اللسان, لا تخفى على صاحب النظرة العجلى, فضلاً عن المتأنية من هنا عني علماؤنا بالتأكيد على أن فهم اللغة سبيل إلى فهم القرآن, فيرى ابن جرير الطبري - رحمه الله- أن اللغة وفهمها شرط لفهم القرآن الكريم, ولا يمكن أن يفهم بالتقصير فيها, فيقول وهو يتحدث عن أهمية اللغة: «وأول ما نبدأ به من القيل في ذلك, الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى ,وتقديمها على ما عداها أحرى, وذلك البيان عما في آي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان برياضة العلوم العربية, ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقة الطبيعية».[1], فتعلم العربية أمر لابد منه لفهم المراد من القرآن الكريم, إذ كيف يفهم خطاباً من لم يدرك خصائص اللغة, ولم يتعرف مزايا بيانه, وعلى قدر تفاوت الناس في فهم خصائص العربية تتفاوت فهومهم وعلومهم بالقرآن الكريم, ولا يقصد بالعربية مفردات ألفاظ فحسب, أو التراكيب فقط, أو البيان والمعاني والأساليب, إنما يعني جميع ذلك وغيره, مما له صلة في بيان القرآن, وإيضاح مراده,«إن القرآن كلام عربي, فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه, وبدون ذلك يقع الغلط, وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة, ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي, وهي: متن اللغة, والتصريف, والنحو, والمعاني,

---

(1) جامع البيان: مُحَرَّمٌ/من المقدمة.

والبيان, ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع في أساليبهم, في خطبهم ,وأشعارهم, وتراكيب بلغائهم, ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل, والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين) [1] وقد أكد الإمام الزمخشري على ضرورة علمي المعاني والبيان لفهم القرآن فقال في مقدمة تفسيره: (علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه, وإطالة النظر فيه, كل ذي علم, فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام, والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام, وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّة أحفظ, والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ, والنحوي وإن كان أنحي من سيبويه, واللغوي وإن يملك اللغات بقوة لحييه, لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق, ولا يغو ص على شيء من تلك الحقائق, إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن, وهما: علما البيان والمعاني) [2] ، وكذلك صاحب المفتاح يؤكد على أهمية علم المعاني والبيان لفهم القرآن, بقوله: لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله – تعالى– من علمي المعاني والبيان, ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته, ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره, ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه, ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها, واستلبت ماءها ورونقها, أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم, فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة[3]، ولا تجد مصلحاً وضع القرآن نصب عينيه في إصلاحه إلا وربط ذلك بكون اللغة هي وسيلة فهمه للقرآن, وإدراك مراميه ولعل في كلام الأستاذ محمد عبده ما يؤيد ذلك إذ يؤكد رحمه الله ذلك بقوله: (بقاء الإسلام لا يكون إلا بفهم القرآن فهماً

(1) التحرير والتنوير: مقدمة/

صحيحاً, ولا بقاء لفهم القرآن إلا بحياة اللغة العربية, فإن كان باقياً في بعض الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم, وببقاء ثقة العامة بهم, فهم ربما يقولونه تقليداً لهم فيه أو بعدم عروض الشبه لهم من دعاة الأديان الأخرى, مع تأثير الوراثة والتقليد, من قبيل ما يسمى في العلم الطبيعي بحركة الاستمرار، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها, وكان العلم والدين في أوج القوة بحياة اللغة العربية) [1]، وخلاصة القول: أن معرفة العربية ومفرداتها وأساليبها يعين القارئ والمفسر على الفهم الصحيح, ويوضح أمامه الرؤية التي يتغياها من القرآن الكريم.

القاعدة العاشرة

معرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية

(1) انظر تفسير المنار, جـ١ صـ

إن معرفة أهداف القرآن الكريم ومقاصده تقصر الطريق على الباحثين عن المعرفة القرآنية, والفهم القرآني؛ ذلك لأن إدراك الهدف من أي شيء سبيل يوصل إلى إدراك المراد منه. (إننا قبل أن ننظر في كتاب ما عن مسألة من مسائل العلم تشغل بالنا ننظر في موضوع الكتاب, فمثلاً لو أن إنسانا أراد أن يبحث في قاعدة نحوية لرجع إلى كتاب من كتب النحو, ولا نتصور أن يأخذ كتاباً في علم النفس, ويبحث فيه عن تلك القاعدة النحوية.. ولو فعل ذلك لكان جاهلاً, وموضوع القرآن: هو الإنسان والحياة الإنسانية, ولقد عالج القرآن الكريم قضية الإنسان, وحدد أساس نجاحه وسعادته, وحدد أسباب حزنه وشقائه, ويفهم من آياته البينات المعجزات أن التصورات البشرية التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الكون والحياة والخالق مدفوعاً بدراسته السطحية, ومتأثراً بالأهواء الظاهرة والخفية, تصورات باطلة مهلكة, وكذلك فإن المواقف التي اتخذها على أساس تلك التصورات باطلة أيضاً ومهلكة) [1], ويرفض الأستاذ سيد قطب– بحق أن يكون القرآن كتاب علم فلكي أو كيماوي وطبي, كما يحاول أن يصوره البعض, ويؤكد على أن موضوع القرآن الأساسي ومجاله الرئيس هو :(النفس الإنسانية والحياة الإنسانية, وأن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه, ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه أن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ....., إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان: ذاته, تصوره , واعتقاده, ومشاعره, ومفهوماته, وسلوكه, وأعماله, وروابطه, وعلاقاته....., إن القرآن كتاب كامل في موضوعه وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها؛ لأنه هو الإنسان ذاته, الذي يكشف هذه المعلومات, وينتفع بها ,والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان,

(1) بحوث في أصول التفسير, د. محمد لطفي الصباغ, ط المكتب الإسلامي, ط الأولى

والقرآن يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يستخدم هذه الطاقات المذخورة فيه بعد أن يوجد الإنسان السليم التصور, والتفكير, والشعور, ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط)[1] , إن إدراك المفسر والقارئ لهذه الكليات الجامعة, والقضايا والأهداف الواضحة لموضوع القرآن, يجعل نظره ينصب على الموضوع الأساس الذي نزل له القرآن الكريم, وهو الإنسان والإنسانية, ذلك الذي أراد الله– تعالي– له أن يكون خليفته في أرضه, فخلقه بيده, ونفخ فيه من روحه, وأسجد له ملائكته, وأرسل له رسله, وأنزل له كتبه, يتعهده حيناً بعد حينٍ, حتى يخرج من الظلمات إلى النور, ومن الضلال إلى الهدى.

وكما أن فهم موضوع القرآن معين على فهم القرآن الكريم, فكذلك فهم المقاصد الأساسية التي يتغياها القرآن الكريم يعين القارئ والمفسر على إدراك خلفيات هذه المقاصد والكليات التي نزل القرآن ليرسخها, من خلال أساليبه المتعددة, وطرائقه المتنوعة, من: القصص, إلى الوعظ والإرشاد, والتوحيد, على الأمر أو النهي(فمن اللازم لمن يريد أن يحسن الفهم عن الله– عز وجل– ورسوله– ﷺ – وألا يكتفي بالوقوف عند حرفية النصوص, ويحمد على ظواهرها ولا يتأمل فيما وراء أحكامها من علل, وما تهدف إليه من مقاصد, وما سعي إلى تحقيقه من مصالح, مادية, أو معنوية, أو فردية, أو اجتماعية, دنيوية, أو أخروية.. إن مهمة الراسخين في العلم أن يبحثوا عن مقاصد الشرع, ومن خلال النصوص, بعد أن يتجولوا في آفاقها, ويغوصوا في أعماقها, ويربطوا جزئياتها بكلياتها ويردوا فروعها إلى أصولها, ويشدد أحكامها بعضها ببعض, بحيث تتسق وتنظم انتظام الحبات في عقدها, مع اليقين بأن الشريعة الغراء لا تفرق بين متساويين, كما لا يسوي بين مختلفين)[2],

(1)انظر بحوث في أصول التفسير,

وإدراك هذه المقاصد القرآنية الجادة يعصم العقل الذي يتناول الآيات من أن يشط بها في التفسير, أو ينحو بها إلى غير مسارها, من هنا عني عدد غير قليل من الأئمة المبرزين, والعلماء المعدودين بذكر العلاقة بين صحة الفهم القرآني وإدراك المقاصد ا لأساسية للقرآن, ومن هؤلاء: الطاهر ابن عاشور– رحمه الله– إذ تناول ذلك في مقدمات تفسيره – التحرير والتنوير, فذكر أن: (المقصد الأعلى من القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والاجتماعية والعمرانية, فالصلاح الفردي يعتمد على تهذيب النفس, وتزكيتها ,ورأي الأمر فيه صلاح الاعتقاد ؛لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير, ثم صلاح الشريعة الخاصة, وهي العبادات الظاهرة, كالصلاة, والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي, إذ الأفراد أجزاء المجتمع, ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه, ومن شيء زائد على ذلك, وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض, على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية, وهذا هو علم المعاملات, ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسية المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك, إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي, وضبط تصرف الجماعات والأقاليم, بعضهم مع بعض, على وجه يحفظ مصالح الجميع, ويرعي المصالح الكلية الإسلامية, ويحفظ المصالح العامة عند معارضة المصلحة الخاصة, ويسمى هذا بعلم العمران, وعلم الاجتماع) [1], ثم عدد الشيخ– رحمه الله –عدداً من المقاصد الكلية, والأهداف الأساسية التي حرص القرآن على إبرازها, والتي لا يمكن لمفسر أو قارئ أن يستوعب معاني القرآن بقدر طاقته البشرية إلا إذا مر بها فقال: «إن هذه المقاصد الأساسية التي جاء القرآن لبيانها, ويجب على المسلم الأخذ بها ثمانية, وهي: الأول إصلاح في الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح وهذا أعظم سبب لإصلاح في الخلق لأنه يزيل عن النفس عادة

(1) التحرير والتنوير :مقدمة/

الإذعان لغير ما قام عليه الدليل, ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك..... وما بينهما ,وقد أشار إلى هذا المعني قوله- تعالى-: " **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**"[1] فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم وليس هو من فعل الآلهة ولكنه من أثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالي: "**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**"[2]..., وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب, بله خاصة الصحابة, وقال أبو أفراس الهذلي مشيراً إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أراد بإحاطة السلاسل بالرقاب أحكام الإسلام, والشاهد في قوله:

وعاد الفتى كالكهل.

الثالث: التشريع, وهو الأحكام خاصة وعامة.

والرابع: سياسة الأمة, وهو باب عظيم في القرآن, القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها, فالإشارة إلى تكوين الجامعة بقوله: "**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا**"[3].

---

(1) هود:

والخامس: القصص, وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم "**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**"[1].

والسادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين, وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها, وذلك علم الشرائع, وعلم الأخبار, وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب, وقد زاد القرآن الكريم على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول, وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين, وفي دعوته إلى النظر ثم نوه بشأن الحكمة فقال: "**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الألْبَابِ**"[2] ، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف, وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم ,وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم, وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل, إنما قصارى علومهم أمور غير بينة, وكان حكماؤهم أفراداً([3]).

القاعدة الحادية عشرة

فهم حقائق الألفاظ المفردة

---

(3) يوسف: ﷺ.
(4) البقرة:

لا ينكر إنسان أن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم, واستخدم ألفاظهم وتعبيراتهم, وصور أدق تصوير وأرقاه ما يريده من حكم وآداب, وقيم ومثل كما أنه من المسلم لغة أن اللغة– أي لغة تشبه– الكائن الحي في نموه وتطوره, وارتقائه من طور إلى طور, ومن مرحلة إلى مرحلة, وهذا كلام واسع الفصول, طويل الأكمام والذيول, يدركه من ينظر في كتب اللغة وفقهها معرفة وثقافة, ويعايشه من يرصد تلك الظاهرة حركة وواقعا, و للألفاظ المفردة دلالات قد تختلف, تقترب أو تبتعد من عصر إلى عصر, ومن زمان إلى زمان, وحتى يفهم المفسر فهما صحيحا صائبا عليه أن يدرك زمن نزول هذه الألفاظ المفردة, ودلالاتها الآنية, واستخداماتها في عصر النزول, فدلالة المفردة لا تكون على طول المدى دلالة واحدة ,لا تتغير ولا تتطور, وإنما تتغير شيئا فشيئا من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة في نفس العصر وذات الزمان ووصول المتعامل مع القرآن إلى المعنى الدلالي الأصيل الذي نزلت المفردة القرآنية عليه وقت نزولها يعينه على الفهم الصائب والإدراك السليم, وقد عني بهذه الفكرة ونظَّرَ لها الأستاذ أمين الخولي – رحمه الله – وهو رائد المدرسة البيانية, التي نسجت على منواله, ومن أبرز أفرادها د. عائشة عبد الرحمن, بنت الشاطئ, والدكتور شكري عياد, وقد حاولت بنت الشاطئ تطبيق هذه النظرية في دراساتها شيئا, وحاول الدكتور شكري – صبورا أن يسلك هذا المنهج في أطروحته عن يوم الدين والحساب, والمدرسة البيانية في مجمل منهجها حاولت أن تدرس القرآن عبر مراحل, منها دراسة المفردة في زمان نزولها, ثم دراستها في طول القرآن كله, ثم دراستها في السياق القرآني حتى يكون فهم المفسر أقرب ما يكون إلى مقصود القرآن([1]) . وقد عرض الأستاذ الإمام محمد عبده –رحمه الله – لهذه الجزئية

[1] – انظر في ذلك بتوسع: موازنة بين منهجي المدرسة الإصلاحية والمدرسة البيانية في التفسير وعلوم القرآن,

وأثرها في فهم القرآن الكريم, فذكر عند حديثه عن مراتب التفسير وأنها متعددة أن أعلى مرتبة من مراتب التفسير لاتتم إلا بأمور منها: (فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن, بحيث يحقق للمفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة, غير مكتف بقول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن النزول لمعان, ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد, من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقا, أو على وجه الخصوص, ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى, كقوله تعالى: " هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول اللذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق "([1]) فما هذا التأويل؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة, ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب؛ فكثيرا ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الأولى, فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله, والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه, بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه, فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره.....ويحقق كيف يتفق معناه, مع جملة معنى الآية, فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه, وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه بعضا, وإن أفضل قرينة تعين على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سيق له من القول, واتفاقه مع جملة المعنى, وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته)([2]), ولا يخفى أن هذا الكلام في غاية البيان عن ضرورة دراسة المفردة في عصر نزولها واستخدامها الأول, ودراستها من خلال دورانها في القرآن الكريم, فقد ترد المفردة في مواطن متعددة بمعان متعددة كما سبق في كلام

رسالة دكتوراة, مخطوطة في كلية الدراسات الإسلامية – جامعة الأزهر, للباحث.

[1]- الأعراف: من الآية 53 .

[2] المنار: 19،20/1 .

الشيخ – رحمه الله – وكما هو واقع ملاحظ, فلفظة: "خير " مثلا الواردة في أكثر من موطن في القرآن, وردت في كل موطن بمعنى, فقد وردت في سورة البقرة في قوله– تعالى– : " كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين " ([1]), وهي تعني ما يتركه المتوفى من مال ومتاع ونحوه, ووردت في سورة القصص في قوله– تعالى–: "رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير "([2]) بمعنى الطعام والشراب, ووردت في سورة ص, في قوله– تعالى– : "إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب "([3]), بمعنى الخيل التي شغل بها سليمان– عليه السلام –عن الصلاة وفي سورة العاديات, في قوله– تعالى– :"وإنه لحب الخير لشديد "([4]), بمعنى المال, وهكذا تتعدد المعاني المراد ة من اللفظة القرآنية حسب السياق الذي ترد فيه, ووعي المفسر والقارئ والمتعامل مع القرآن بهذه القاعدة يوفر عليه الكثير من البعد عن المراد ويقرب له غرضه المقصود وهدفه المنشود .

المبحث الثالث

عقبات في طريق الفهم

وإذا كنا قد عرجنا على بعض القواعد التي تعين على الفهم السليم لمضامين القرآن الكريم, وهي كل من كثر, وغيض من فيض, مما يحتاج إلى

---

[1] البقرة من الآية 180

[2] القصص: 24

[3] ص: 32.

[4] العاديات: آية 8 .

دراسة متصلة موسعة, فإن هناك عقبات كأداء, تقف حجر عثرة أمام الإنسان في طريق فهم القرآن الكريم, ومن أبرز هذه العقبات ما يلي:

- **عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب**

فإن ذلك يقطع على الإنسان طريق الفهم, ويجعله يصدر أحكاماً مسبقة, بناء على تصورات خاضعة لمذهبه, أو نزعته الكامنة في عقله, ولا يتيح له الفرصة ليتعرف على مراد الله– تعالى– من كلامه, بناء على ما لديه من ميل عاطفي, تبعه ميل فكري إلى قناعة معينة, ورؤية مسبقة, فيبادر إلى المصادرة على الفهم السليم والإدراك الصحيح, ولو كان قد قدم إلى القرآن الكريم خالي الذهن, إلا من وسائل الفهم الصحيح, وألقى عقله لهذا الدستور الإلهي الخالد, يشكله كيف شاء, لانتفع أيما نفع, وفهمه أيما فهم, لكنه قدم إلى القرآن الكريم ولديه رؤى سابقة, وفهوم يقدمها بين يدي الفهم الصحيح للقرآن الكريم، بل قد يلوي مراد الآية إلى غير سبيلها, ويحول مجراها إلى غير طريقها, حتى توافق هواه, وتأتي مطابقة لفهمه السقيم, وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير أن من له ميل إلى نزعة, أو مذهب, أو علة,(يتأول القرآن على وفق رأيه, ويصرفه عن المراد, ويرغمه على تحمل ما لا يساعد عليه المعني المتعارف, فيجر شهادة القرآن لتعزيز رأيه, ويمنعه عن فهم القرآن حق الفهم ما قيد عقله من التعصب عن أن يجاوزه, فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه, حتى إن لمع له بارق حق وبداله معني يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة, وقال كيف يخطر هذا ببالك, وهو خلاف معتقدك, كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له أن يعي قوله تعالى "**الْقُدُّوسُ**" [الحشر:

تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معني ثاني أو ثالث, ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه, وجمود الطبع على الظاهر مانع من التوصل اللغوي)[1], وقد وصف الغزالي هذا الذي حال ميله إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهم بأنه: (شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه, فإن لمع برق علىُ بعد, وبدا له معني من المعاني التي تباين مسموعه, حمل عليه شيطان التقليد حملة, وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك, فيرى أن ذلك غرور الشيطان, فيتباعد منه, ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب, وأرادوا بالعلم: العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد, أو بمجرد كلمات جدلية, قررها المتعصبون للمذاهب, وألقوها إليهم, أما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة, فكيف يكون حجاباً وهو منتهى الطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً.) [2]

ﷺ- النظرة الجزئية للقرآن الكريم

إن النظرة الجزئية لآيات القرآن الكريم أو التصور الموضعي تصور ناقص يمثل عقبة من عقبات الفهم القرآني ذلك أن القرآن الكريم صورة متشابكة الأجزاء متلاحمة الأعضاء لا يغني جزء منها عن جزء آخر بل يكمل بعضها بعضاً وتؤدي في النهاية إلى فكرة واضحة وقيمة مكتملة يخدم بعضها بعضاً وإطلالة سريعة على شريحة معينة من الآيات الكريمة تدلك بجلاء كيف تناول القرآن الكريم حديثاً عن القراءة والخلق وطغيان الإنسان في تلاؤم تام, وانسجام

(1) انظر التحرير والتنوير: جﷺ صـ

كامل؛ (فالقرآن غذاء روحي مكتمل العناصر، وكما أتناول على المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد, أو في أغذية واحدة في وجبة واحدة, فكذلك يتقدم لنا القرآن برسالة حياة شاملة, لا تدع جزءا منه إلا ويمتد إليه, ويجري الوحي الإلهي خلال هذا النسق القرآني, كما تجري الدماء داخل العروق لتشمل الرأس والقدم, الجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة كل شيء... إن الرؤية القرآنية لا يمكن أن تكون إلا حضارة كاملة... ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية, التي تجعلني أعيش في جانب وأنسى الجانب الآخر, كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط, أو بيضاء فقط, أو بعض العناصر المعدنية فقط التي تسير في الدم ولا يكون دماً إلا بها... إن النظرة الشاملة للقرآن هي النظرة الصحية للدراسات القرآنية, ولا يمكن الرضي بنظرة جزئية؛ لأنها عندما سارت في الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أجزائه, أو في بعض أجهزته, مع بقاء أجهزة أخرى حية, إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر يجمد بعض الأجهزة, أو بعض الأعضاء)[1] ، فاجتزاء النص يؤدي إلى تشويه القضية الكاملة, وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقول عن اليد وحدها إنها إنسان, أو القدم وحدها إنها إنسان, فكذلك لا يستطيع أن يدرك الفهم الصحيح للقرآن الكريم إلا بالنظرة الكاملة, التي تتعدى التجزيء في الحكم, وتترقى من النظرة الموضعية إلى النظرة الموضوعية.

من آثار النظرة الجزئية للقرآن الكريم

(1) كيف نتعامل مع القرآن, صـ

من هنا فإن النظرة الجزئية تكون آثارها وخيمة على الفكر الإسلامي, فهي تفيد من الآيات ما لا تدل عليه الآيات, وتنسب إلى القرآن أحكاماً ليست من أحكام القرآن، وما ذلك إلا لأنها نظرت نظرة موضعية, ولم تطلق نظرها في الموضوع كله, فوقفت عند حد لا يكتمل به المراد, وذلك أوقع الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً في مسائل شائكة, بل أوقع بعضهم أحياناً في فهوم تناقض تماماً مراد القرآن الكريم, خذ مثلاً فهم بعضهم لقوله- تعالى- : "**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**"[1] , التي أخذ منها أن العمل مخلوق لله- تعالى- «ونسينا أن هذا الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسئولين؛ لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله, وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله, فما عليهم من ذنب, لكن نحن أخذنا ظاهر الآية, وقطعناها من سياقها من قبل ومن بعد, وجعلناها هكذا دليلاً لرأي باطل..؛ إنها آفة التجزيء, وبعضهم بلغت به النظرة الجزئية أن يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم, وإذا سألتهم عن الدليل يقولون: قوله- تعالى- : "**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**"[2] ويقف, من ثم لا يكمل الآية؛ لأن إكمال الآية "**كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً**", فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل, وليس هناك ما يستدعي هذا, بل سميت آية السيف بذلك من المستثني قبل الاستثناء في قوله- تعالى- في السورة نفسها: "**وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**"[3], وانتهي الأمر, وأخذ منها البراءة المطلقة, أما الاستثناء الذي جاء ووضح حدود البراءة, ومعناها, والمجال الذي لا يجوز أن نتعداه, وهو قوله- تعالى- :"**إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**

---

(1) الصافات:

ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ"[1]، نسيناها اعتبرنا المستثني منه أصلا وأصبح القتال عاماً, بدون وعي للمعني نفسه،وما أوقع الناس في مثل هذا الفهم المشوه للآية الكريمة إلا النظرة الجزئية, التي أضاعت المعنى, وبترت الفهم, حتى أدى إلى غير المراد منه، وإذا نظرنا إلى آية أخرى في نفس السورة وهي قوله– تعالى– :"**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**"[2]، وعرفنا أن ما ذكر قبلها من آيات" أمر عام في جميع الأحوال, وفي كل الأشخاص, ذكر– تعالى–: أن المصلحة إذا اقتضيت تغريب بعض جاز, بل وجب ذلك فقال: "**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ**" طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله, وينظر حالة الإسلام "**فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ**", ثم إن أسلم فذالك, وإلا فأبلغه مأمنه, أي: المحمل الذي يأمن فيه, والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون, فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم, إذا زال اختاروا عليه الإسلام, فلذلك أمر الله رسوله, وأمته أسوته في الأحكام, أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله»[3] ؛ ذلك أن كمال إنسانية الإنسان أن يخلي نفسه, حتى يفكر فيما يصلحه ويفيده, من هنا أسقط الله التكليف عن المكره حال الإكراه؛ لأنه فقد عندئذ مؤهلاً من مؤهلات التكليف, ولم يعد أهلا له.., من هنا نري أن (شمول النظرة أمر لابد منه, لكي تعطي الأحكام الصحيحة من الناحية الفقهية التشريعية, فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سويٌّ, له سمع وبصر, وله فؤاد, ولابد أن تستغل هذه الوظائف

(1) التوبة: ٤.
(2) التوبة: ٦.
(3) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن, للشيخ عبد الرحمن السعدي, ط: الرسالة, ط أولى

جميعاً في تصحيح إنسانيته, والعيش بها, أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه, فكيف تكره أحداً؛ إنك بهذا تلغي إنسانيته, وما فائدة الحكم الشرعي إذا فقد الإنسان الذي يطبق الحكم الشرعي) [1] ,هذا وقد دعي القرآن الكريم المسلمين إلى أن يأخذوا الإسلام- والقرآن أول مصادره- كاملاً غير منقوص, ويدخلوا فيه كله, فقال- تعالى-: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**" [2], أي: ادخلوا جميعكم في الإسلام,أو ادخلوا في الإسلام جميعه, ولا تجتزئوه, كما فعلت الأمم السابقة, وقد رصد الله- تعالى- سببا من أسباب البوار والهلاك للأمم الماضية, بأنهم جعلوا القرآن عضين, فقال- تعالى- :"**كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**"[3], أي جعلوه أجزاء أخذوا بعضه مما يوافق هواهم, وتركوا ما لا يروقهم ولا يقبلونه، ونعى- سبحانه وتعالى- عليهم مسلكهم هذا الذي يجتزئون به الوحي, فيأخذون بعضه ويتركون بعضه, فقال "**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**"[4] .

وقال: "**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**"[5].

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن:

إن القرآن الكريم وحدة لا تتجزأ, وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة, بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد, فبعضها يؤثر في بعض, ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر عن سائر الأجزاء, فالعقيدة تغذي العبادة , والعبادة تغذي الأخلاق, وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة, (ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله- تعالى- في سورة البقرة "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**"[(1)], فيقول: سمعنا وأطعنا ولكن إذا قرأ في السورة نفسها قوله- تعالى-: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**"[(2)] قال: سمعنا وعصينا؛ لأن الآية الأولي في مجال العبادات والأخرى في مجال العقوبات, ومعني هذا أن الإنسان أصبح معقباً لحكم الله- تعالى- يأخذ منه ويدع بهواه وحده, والله لا معقب لحكمه..., إن من فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة أو أوائل البقرة وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم: "**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**"[(3)] .فقرن بين الجانب الاعتقادي: (الإيمان بالغيب), والجانب الشعائري: (إقامة الصلاة), والجانب الاقتصادي: (الإنفاق مما رزقه الله), وهذا هو منهج القرآن الربط بين جوانب الحياة كلها برباط لا ينفصم؛ لأنها هكذا في واقع الحياة, وإذا كانت الحياة كلها مترابطة متلازمة فلابد أن تكون الأحكام التي تشرع لها كلها مترابطة متلازمة كذلك, وذلك هو حكم الله, "**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**" [(4)] [(5)]

رابعاً- الوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت

---

(1) البقرة:

والوقوف عند ترنيم الصوت وحده والعكوف على بهائه وروائه دون النظر في مرامي الآيات الكريمة من عقبات الفهم, وحجاب بين الإنسان وإدراك رؤية القرآن الكريم للأشياء، وإن آفة الأمة المسلمة– ونحن من أفرادها– أنها شغلت حيناً من الدهر – وما تزال تشغل– بجمال الصوت, وحسن الأداء, على حساب الفهم السليم, والإدراك القويم, وما تراه في واقع الناس, كلهم أو بعضهم, من وقوفهم عند حد الحروف والمطالع, والوقوف والفواصل, لعلامة مرض سرى ويسرى في الأوصال، لقد كان الصحابة وسلفنا الصالح يقف الفرد منهم عند الحدود و الحروف وقد يردد الآية مراراً, ويعيدها تكرارا, حتى تعمل في النفس عملها, وتؤدي دورها, كما تؤدي الأدوية الفاعلة في الأمراض المتوطنة– عملها, اجتثاثا وإزالة وهدماً وبناءا, فتغيرت أحوالهم, وتبدلت أعرافهم على مراد القرآن الكريم, يؤكد ابن قدامة – رحمه الله – تجنب الإنسان لهذا المانع من موانع الفهم, وتلك العقبة التي تقف دون الوصول إلى مراد الله– تعالى– فيقول: (وليتخل التالي عن موانع الفهم, مثل أن يخيل إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف, ولا أخرجه من خرجه, فيصرف همته عن فهم المعنى) [1], وما تراه من واقع المسلمين, من الحرص على إقامة الحروف وعدم الوقوف على المعاني, ليس إلا صارفاً من صوارف الفهم, ومانعاً من موانع التدبر الحقيق, والإدراك العميق لمرامي القرآن الكريم. قد تسمع قارئاً يقرأ آيات العذاب والعقاب, وترى من يتمايل حوله طرباً, ولو فهم هذا السامع المعنى المقصود لبكى أو لتباكى, بدل أن يذهب مع حلاوة الصوت على حساب طلاوة المعنى,, ولاشك أن القراءة الصحيحة القويمة طريق إلى الفهم الصحيح, وباب من أبوابه, وقد حث النبي ﷺ أصحابه قولاً وعملاً على تجويد أصواتهم بالقرآن, فيسمع من أبي موسى قراءته ويقول: (لو رأيتني وأنا أسمع قراءتك آنفا فيقول ﷺ وأرضاه: لو أني أعلم يا رسول الله لحبرته لك

(1) مختصر مناهج القاصدين, صـ

تحبيراً((1)، ويطلب من أبيّ أن يقرأ عليه فيقول: «أقرأ عليك وعليك أنزل يقول ﷺ:إني أحب أن اسمعه من غيري)(2),ويرشد ﷺ إلى ذلك فيقول: «زينوا القرآن بأصواتكم»(3),والقرآن الكريم نفسه قد حث على قراءة القرآن حق القراءة,وتلاوته حق تلاوته,فأثني علي الذين يتلونه حق تلاوته وأعلى شأنهم فقال تعالى:"**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ**"(4) ,وكانت أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هي:"**اقْرَأْ**" (5) ؛ لأن القراءة هي مفتاح الفهم,وتجويد هذه القراءة معين من معيناته, وسبيل من سبله الموصلة إليه لكن الملاحظ أننا تمهرنا في قراءة القرآن ووقفنا عند حد الحروف والألفاظ, ولم نسبر أغوارها بالصورة المرادة, والغرض المقصود,فخلطنا بين الوسيلة والغاية,والأسباب والمقاصد,وكأن القراءة صارت هدفاً في ذاتها,وغاية في نفسها,حتى سرت إلينا علل الأمم السابقة وأمراضهم,يكون بين أيديهم الكتاب ولا يعلمون منه إلا أماني,كما قال تعالى: "**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**"(6)'(يقول ابن تيمية رحمه الله عن ابن عباس وقتادة في قوله« "**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ**" أي:غير عارفين بمعاني الكتاب,يعلمونها حفظاً بلا فهم,لا يدرون ما فيها(7)..,وقوله "**إِلاَّ أَمَانِيَّ**" أي:تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب,إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم».«والأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد,

---

[1] – البيهقي, في شعب الإيمان: ج 2 ص 525, وقال:أخرجاه في الصحيحين دون قول أبي موسي , وانظر مسلم: ج 1 ص 546.

[2] – صحيح مسلم:ج 1 ص 551, باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر برقم 801.

[3] – صحيح البخاري:ج 6 ص 2742, برقم4635, باب قول النبي: الماهر بالقرآن.

(4) فاطر:

والغيـــاب الحضـــاري,والعجز عـــن تـــدبر القـــرآن والتعامـــل مـــع الأحـــداث,واتخاذ المواقف,واكتشاف سنن الله في الأنفس والأفاق,وحسن تسخيرها,ومعرفة كيفية التعامل معها,والنفاذ من منطوق النص و ظاهره إلى مقصده ومرماه,والتدخل حين نعلم السنة وأنها تتكرر ولا تتبدل فنستطيع توجيها إلى حيث نريد ونفيد فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله أو نفر من قدر الله إلى قدر الله كما قال عمر بن الخطاب ﷺ، يقول ابن القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله». إنها الأمية العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن,والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة,ووسائل النشر,وتقنيات التسجيل[1]وهذه الأمية العقلية التي صارت حجاباً للفهم,وحاجزاً عن الوعي والإدراك لمضامين القرآن الكريم ليست وليدة عصر من العصور,بل وليدة عدم الترتيب بين الغاية والوسيلة,فالقراءة التي هي وسيلة الفهم أصبحت في حد ذاتها هي الغاية والمبتغى,وصرنا إلا من رحم الله– مبلغ علمنا أن نجود الحروف,ونحقق صفاتها ومخارجها,فكان الاهتمام بالشكل على حساب المضمون,فقد يعيب الإنسان أي عيب إذا رقق المفخم,أو فخم المرقق,أو لحن جليا أو خفيا,ولا يعاب إذا لم يدرك بدهيات القضايا في القرآن الكريم,أو المعاني الظاهرة المتبادرة لأن طريقة التعلم غرست فينا هذا الجانب ولا يقول أحد بأن جودة الأداء ليست غرضاً ولا هدفاً,لكن هناك فرق بين غرض هو مقدمة لغيره,وبداية لسواه,وغرض هو المقصود الأسمى للقرآن الكريم,وقد ذكر ابن قدامة:أن المبالغة في أداء الحروف صارف من صوارف الفهم,ومانع من موانعه,بل تلبيس من تلبيس الشيطان بقوله:(وليتخل التالي عن موانع الفهم مثل أن يخيل له الشيطان أنه ما حقق تلاوة الحرف,ولا أخرجه من مخرجه,فيصرف همته

(1) كيف نتعامل مع القرآن: صـ

عن فهم المعني) [1] وقد وصف حمزة,وهو أحد أئمة القراء المعروفين القراءة بأنها كالبياض فإن زادت أصبحت برصا,وإن قلت أصبحت سمرة) [2] ؛ إن علاقة المسلمين بالقرآن علاقة تستوجب السؤال والدهشة,وتسترعي النظر,وتثير الانتباه,فالأمة التي نزل فيها(اقرأ)لا تكاد تقرأ, و الأمة التي نزل بها(**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاس**)[3] لا تكاد تعرف عن الحديد شيئاً ذا بال وأمة (انظروا) لا تكاد تنظر, وأمة:(قل سيروا في الأرض) لا تكاد تسير,وإن سارت فهو سير للمتع الفانية والشهوات الذاهبة,(إنه من عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة,ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه,أو بريق فقد سناه,والأمة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملاً لا يجوز السكوت عليه، كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه, ويتواصون بالشغب على مجالسه,ويعلنون بتكذيب صاحبه,حتى شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود:"**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**"[4],أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون,وقد يتأوهون أو يسكتون,ولكن العقول مخدرة, والحواس مبعثرة,ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر,وكأنها تنادي من بعيد,والأمة المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة,والحضارة التي يصنعها لا تجد من يصور معالمها بإتقان,ولا من يعبد طريقها بذكاء ولا من يفتح لها دكاناً صغيراً في سوق امتلأ بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئاً,أو مذاهب باطلة– بالتعبير الصريح,هكذا يتصرف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليها؟ [5] إن هذا لمن البلاء المبين,الذي يجعل الحليم يحار,أمة لها موروث ثقافي,ومدد سماوي,كفيل بأن يتبوءوا بها سدة الدنيا ومقدمة العالم,يكون حالها أن تصير في عداد النائمين

(1) مختصر مناهج القاصدين:صـ

الغائبين,وليست الأزمة أزمة منهج,فالمنهج موجود والمصدر محفوظ,وذلك من فضل الله على المسلمين,ولكن الأزمة الحقيقية في التعامل والفهم, والوعي والإدراك.

وقد أخذ جانب الشكل اهتماماً أكثر من حجمه في فكر المسلمين وعقولهم,وامتد ذلك في فراغ المضمون,لقد فصلت الأمة بين القراءة والفهم,وأصبح المسلم يقرأ القرآن ليجد البركة,وكأن تدبر ألفاظه دون حس بمعانيها ووعي لمغازيها يفيد أو هو المقصود..., إن القرآن الكريم يصنع النفوس,ويصنع الأمم,ويبني الحضارات,هذه قدرته,وهذه طاقته,فأما أن يفتح المصباح فلا يري أحد النور؛لأن الأبصار مغلقة,فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور,والله تعالي يقول" **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**"[1] ' نحن ما اتبعنا رضوان الله ولا سبل السلام,ولا استطعنا أن نقدم سلاما للعالم,ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس,هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن,ولا تعرف عنه شيئاً والسبب أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن,وفاقد الشيء لا يعطيه[2].

والخلاصة:أن القراءة مطلوبة وهامة,والتجويد وحسن الأداء ضروري ومؤثر,لكن يوضع كل ذلك في مكانه ومقامه,فلا يمتد على حساب الفهم,ولا نسرف في الوقوف عند الشكل على حساب المضمون,حتى لا تتحول وسائل الفهم إلى موانع,ومعيناته إلى صوارفه.

– وضع النصوص في غير مواضعها:

ومن الأمور الصارفة للعقل عن الفهم والتدبر والتي تجعل بين العقل وفهم

---

(1) المائدة:

القرآن سدا منيعا أن توضع النصوص في غير موضعها,فيستدل بها على غير قضاياها,ويقدم بها لنتائج غير نتائجها,إما لعلة في نفسه أو خلل في تركيبه الفكري والثقافي,وعدم تهيئته بأدوات الفهم الصحيح والفكر السليم,فتجده مثلاً يستخدم النصوص في غير بيئتها الطبيعية,ومن أول من صنع ذلك الخوارج(حيث رفضوا مبدأ التحكيم في الخلاف بين علي ﷺ ومن معه,ومعاوية ومن معه,وحجتهم التي أعلنوها وتمسكوا بها قول الله تعالى: "**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ**"[1] , وعقب أمير المؤمنين علي- رضي الله عنه- على حجاجهم هذا بكلمته الحكيمة البليغة التي ذهبت مثلاً في التاريخ إذ قال:«كلمة حق يراد بها باطل»,فالكلمة في ذاتها حق؛إذا لا حكم إلا لله,سواء فسرنا الحكم بالحكم الكوني,بمعني أنه لا يدبر هذا الكون ولا يتصرف فيه إلا الله تعالى,أم فسرناه بالحكم الأمري التشريعي,بمعني أن الآمر والناهي المشرع الذي له حق الطاعة المطلقة هو الله وحده,ولكن هذا المعني شيء والتحكيم في المنازعات شيء آخر,فهذا أمر قد شرعه الله تعالى وحكم به,ودل عليه فهذا من جملة حكمه سبحانه وتعالى[2] ' ونجد أمثلة متعددة لهذا الفكر المعوج,الذي يأخذ نتيجة من غير مقدماتها,ويقدم مقدمات لغير نتائجها,كأن تسمع بعضهم يقول:(إن القرآن نفسه سوى بين المرأة والرجل في الميراث في قوله تعالى:"**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**"[3],وينسى أن هذا النصيب المفروض قد وضحه القرآن نفسه في السورة نفسها,وقد سمي القرآن الكريم هذا الفعل- وهو وضع النصوص في غير مواضعها تحريفا للكلم عن مواضعه,ونعى على أهل الكتاب هذا الصنع الشنيع,ووصفهم بأن الله- تعالى- أراد فتنتهم ؛لسوء فعلهم,وقبح صنيعهم,ولم يرد أن يطهر قلوبهم فقال:"**يَا**

---

(1) يوسف:

أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّا عُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّا عُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[1]

ومن سار في هذا الباب أتى بالعجائب من المعاني لم ينزل الله بها من سلطان يستدل بعضهم على منع تعدد الزوجات بقوله تعالى: "**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**"[2]'ويروج للسياحة العصرية بأن القرآن أثني على السائحين والسائحات,كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم لهم الجنة:"**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**"[3] وقوله تعالى "**عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**"[4] فهل يتصور هذا الجو العاطر الطهور أن يكون المراد بالسياحة ما نشهده في عصرنا من أفواج المنحلين والمنحلات,الذين تقذف بهم الطائرات من الجو,والبواخر من البحر,باحثين أو باحثات عن المتعة واللذة أينما وجدت ؟ »[5]

- أن يكون همه آخر السورة..

---

(1) المائدة:

وهـذا مـانع مـن موانـع الفهم,وعقبـة مـن عقبـات الوصـول إلـى المعنـي المقصود؛لأنه يكون أكبر شغله,ومبلغ علمه,وأعظم أمله,أن يختم أو يصل إلى آخر السورة,وقد ورد عن النبي ﷺ «أن الغاية من العبادة عامة الوصول إلى معناها,لا الوقوف عند شكلها, " رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش,ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب»[1] . وقد قال تعالى في بيان القراءة النافعة:"**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً**"[2]'وأمر رسوله ﷺ بالتمهل والتحسين,والإجادة في إقامة الحروف والحدود,فقال:"**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**"[3],والذي يوقع بعض القارئين في هذا المانع أن يأخذوا جانباً من جوانب الآيات والأحاديث التي تدل على فضل القراءة, دون أن يقرنوها بأخواتها مما يدل على فضل الفهم وأن يكون لهذه القراءة ثمرة من الإدراك والوعي، أو قد يكون ذلك من تلبيس إبليس فقد ذكر ابن الجوزي (أنه قد لبس على قوم بكثرة التلاوة فهم يهذون هذًا من غير ترتيل ولا تثبت,وهذه حالة ليست محمودة ,وقد روي جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم,أو في كل ركعة,وهذا يكون نادراً منهم,ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء) [4]'وليس أدل على ذلك من سيرة السلف الصالح وموقفهم مع القرآن الكريم من ترديد آيات يمرون بها لا يجاوزونها حتى يصلوا بها إلى معاني تشبع نفوسهم,وتروي غلتهم,ورأس الصالحين رسول الله ﷺ يقف ليلة كاملة يردد قوله تعالى:"**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**"[5] «وقد قام تميم الداري ليلة بهذه الآية "**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجترحوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا**

(1) سنن ابن ماجة / برقم ,, وقال صحيح على شرط البخاري,ولم يخرجاه
(2) الإسراء:

يَحْكُمُونَ"[1] , وقام سعيد بن جبير ليلة,يردد هذه الآية:"**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**"[2],وقال بعضهم:إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها,حتى يطلع الفجر,وكان بعضهم يقول:آية لا أتفهما ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابا,... وحكي عن أبي مسلم الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها,وعن بعض السلف أنه يبقى في سورة ستة أشهور يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها,وقال بعض العارفين:لي في كل جمعة ختمة,وفي كل شهر ختمة,وفي كل سنة ختمة,ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد,وذلك بحسب درجاته وتعيشه) [3] أما أن تكون القراءة مطلباً في ذاتها,وغاية في نفسها فلا؛فعظم الأمر ليس على ترداد الحروف, وهذ القرآن هذا الشعر , وإنما ما وقر في القلب وقارنه العمل؛من هنا كان حال السلف الصالح , من هنا أثرت التلاوة في سلوكهم,فتغيرت معارفهم,واستضاءت سريرتهم,وصح علمهم وعملهم في الحياة,وهذه غاية القرآن الكريم.

- مرض القلب أو عدم خضوعه

من أكثر الصوارف عن فهم القرآن الكريم والوصول إلى معانيه أن يكون القلب- وهو محل العقل والفهم والتدبر والوعي غائباً أو مريضاً؛ لأنه المزرعة التي ينمو فيها الفهم, والبوتقة التي يكتمل بها العلم, وقد وصفه الرسول ﷺ بأن صلاح البدن بصلاحه, وفساده بفساده فقال في الحديث الصحيح: (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي إلا وهي

(1) الجاثية:

القلب) [1]، وقد صور القرآن الكريم حال قوم سماعيين للوحي, معايشين للنبوة لكنهم غائبو القلب بقوله: "**وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**"[2]، وقد تعهد تعالي بصرف مرضى القلوب عن فهم آياته, وتدبر كلماته فقال: "**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**" [3]

وصرف الله تعالى لهؤلاء المتكبرين عن فهم آيات القرآن الكريم وتدبر عطاءاته ليس ظلماً لهؤلاء, بل هم البادءون للبعد عن هدايات الله– تعالي– , وقد وصفهم الله– تعالي– بأنهم إن رأوا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً, وإن رأوا سبيل الغي اتخذوه سبيلاً, وبأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا عنها غافلين, وأن ذلك ليس إلا جزاء لهم عما كانوا يعملون, وكذلك كل الآيات التي تناولت هذه الأوصاف, مثل الختم, والطبع, والأكنة, ونحو ذلك, تدلك أنهم هم البادءون للإعراض عن هدايات السماء, وعطاءات القرآن الكريم, وقد ذكر الإمام الزركشي– رحمه الله– في برهانه أن القلب المريض لا يصل إلى فهم مراد الله– تعالى– من كلامه, فقال: «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي, ولا يظهر له أسراره, وفي قلبه بدعة, أو كبر, أو هوى, أو حب الدنيا, أو هو مصر على ذنب, أو غير متحقق بالإيمان, أو ضعيف التحقق, أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم, أو راجع إلى معقوله, وهذه كلها حجب وموانع

(1) صحيح البخاري, من حديث النعمان بن بشير, باب من استبرأ لعرضه ودينه, ﷺ/

بعضـها أكثـر مـن بعـض) [1] ؛ فالبدعـة عنـدما يسـر بهـا القلـب- عيـاذاً بـالله- تصـد القلـب عـن الفهم, فيكـون حـائلاً بينـه وبـين الإدراك والمعايشـة, بـل قـد يـؤدي إلـى غيـر المراد؛ لأن ميزانـه غيـر منضـبط, وقياسـه غيـر سـليم, وقـد حـدد النبـي ﷺ وصـفاً لـهذا القلـب المعـوج الـذي تنكـت فيـه النكـت السـوداء, فتحـول بينـه وبـين معرفـة المعـروف, وإنكـار المنكـر بـالكوز المجخـي, فيقـول ﷺ :«تعـرض الفـتن علـى القلـوب كعـرض الحصـير عـوداً, عـوداً فأيمـا قلـب أنكرهـا نكتـت فيـه نكتـة بيضـاء, وأيمـا قلـب أشـربها نكتت فيه نكتة سوداء, حتى تصير القلوب على قلبين: أبيض كأنما فيه سراج يزهر, وكـالكوز مجخيـا لا يعـرف معروفـاً ولا ينكـر منكـراً»[2]؛ ولـذلك حـرص علماؤنـا علـى بيان خطر مرض القلب في الفهم والإدراك, فقال ابن قدامـة- وهـو يعـرض لـهذا الأمـر الجلل: (وليتخـل عـن موانـع الفهـم, ومـن ذلـك أن يكـون مصـراً علـى ذنـب, أو متصـفاً بكبر, أو مبتلى بهوي مطـاع, فإن ذلك سبب ظلمـة القلب وصدئه, فالقلب مثل المرآة, والشهوات مثل الصدأ, ومعاني القرآن مثل الصـورة التـي تتراءى فـي المرآة, والرياضـة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة)[3]" ، وقد يكون القلب سليماً لكنـه غائـب عمـا يقرأ, لاه عما يتلو, فلا ينتفع بتلاوة, ولا يفيد من قراءة, ويستوي فـي ذلـك مـع مـريض القلـب فـي هـذه الصـفة, وقـد قسـم ابـن القـيم- رحمـه الله- تعـالـى- القلـوب, وذكـر أن غيـاب القلـب عمـا يعـاين صـارف مـن صـوارف الفهـم, فقـال:(النـاس ثلاثـة رجـل قلبـه ميت، ورجل لـه قلب حـي لكنـه مشغول ليس بحاضر, فهذا لـه الذكرى, والثالث رجل حـي القلب مستعد تليت عليـه الآيـات فأصـغى بسمعه, وألقـي السمع, وأحضـر القلـب, ولـم يشغله بغيـر فهـم مـا يسـمع, فهـو شـاهد القلـب, فهـذا هـو الـذي ينتفـع بـالآيـات) [4]

---

(1) البرهان: جمُحَرَّمٌ ص

وقد عد ﷺ اشتغال القلب من موانع الفهم, فيحدث أيضاً عن المؤثر والمانع والشرط في الفهم بقوله: (فإذا حصل المؤثر وهو القرآن, والمحل القابل وهو القلب الحي, ووجد الشرط وهو الإصغاء, وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب, وانصرافه عنه إلى شيء آخر, حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[1] , من هنا علينا أن نجزم بأن مرض القلب أو غيابه مانع من موانع الفهم, وصارف من صوارف إدراك المراد من كلام الله- تعالى-؛ لأن القلب هو محل الانتفاع, وقد نسب الله- تعالي- إليه الإدراك في آيات كثيرة من القرآن الكريم, فقال تعالي: "**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**"[2], وقال-تعالي-: "**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**"[3] , وقال- تعالي-: "**خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ**"[4] ' ولكون القلب هو محل الانتفاع أو الإعراض عن هذا الانتفاع, نسب الله- تعالي- في القرآن الكريم أفعالاً متعددة, مثل: والإصغاء, والخشوع, والوجل والطمأنينة, كما نسب إليها القسوة, والكسب, والمرض, والختم, والصرف, والانتفاع, واللهو, والزيغ, إلى غير هذه الأوصاف التي تحتاج إلى دراسة مفردة[5]

- التورع الواهم:

بعض الناس لديهم فهم مغلوط, أو تدين مغشوش بتعبير بعض شيوخنا, يضع الأمور في غير مواضعها, ويزن الأشياء بغير موازينها, ومن ذلك بعدهم عن التدبر القرآني ظناً منهم أنهم ليسوا أهلاً للتدبر, ولا كفؤا للتفكر, ويكتفون من ذلك بالقراءة

---

(1) الفوائد: صـ٣/٢.
(2) محمد:

المجردة, والوقوف عند تحصيل أجر الأداء, ناسين أو جاهلين أن دور القرآن الكريم في الحياة ليس تحصيل الثواب للآخرة فحسب, بل أيضاً لإعمار الكون وإحياء الحياة على اسم الله– تعالي–, وعلى ضوء من منهاجه وتشريعه, وهذا الفهم المغلوط, أو النظر القاصر باب من أبواب تلبيس الشيطان على الإنسان, حتى قال ابن هبيرة – رحمه الله– ومن مكايد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر, فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً»[1]

وقد عد ابن القيم هذا التلبيس لوناً من ألوان الحرج, يخشى منه, فقال: (ومن قال إن له– أي القرآن– تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه, وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه, ففي قلبه منه حرج)[2]؛ ذلك لأن الهدف الأسمى من القرآن الكريم ليس فقط مجرد النظر في حروفه وصفاته, بل إقامة حدوده وتصوراته, حتى يعمر الإنسان الأرض على منهاج هذا الكتاب الكريم, الذي هو وسيلة الأحياء في الحياة, وليس فقط ذخر الأموات بعد الحياة, ومن أروع ما يذكر في ذلك كلام فقيه المقاصد– الإمام الشاطبي– رحمه الله– عندما يوازن بين كونه معجزا, وكونه مفهوماً معلوماً, إذ يقول– رحمه الله–: (فمن حيث كان القرآن معجزا أفحم الفصحاء , وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله, فذلك لا يخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب, ميسراً للفهم فيه عن الله مما أمر به ونهي, لكن بشرط الدربة في اللسان العربي, إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق, وذلك مرفوع عن الأمة, وهذا من جملة الوجوه الإعجازية إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب, مفهوم معقول, ثم لا يقدر

(1)وانظر تدبر القرآن: صـ

البشر على الإتيان بسورة مثله, وقد قال- تعالى-: "**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّ كِرٍ**"[1], وعلى أي وجه فرض إعجازه, فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه ومعقل معانيه, "**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**"[2] فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم [3]، فكون القرآن معجزاً للفصحاء, ومسكتاً للبلغاء, لا يعني ذلك أن يكون عسير الفهم, أو بعيد المنال, وإن كان للناس في فهمه وتدبره درجات, وقد يتيح الله تعالي لإنسان من المعاني ما لا يجده في كتاب ولا يحصله عند غيره من أهل التخصص والاستذكار, وكم رأينا في حياتنا المعيشة أفراداً لا يربطهم بالقرآن، إلا إمعان النظر, وجودة التفكير, وحسن المطالبة يأتون بمعاني لم يقف عليها علماء, أفذاذ ورواد مميزون, ولعل ذلك وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم.وقد فند الشيخ الشنقيطي- رحمه الله- صاحب أضواء البيان شبهة أن تدبر القرآن لا يكون إلا لمجتهد خاص, فذكر عند تعرضه لقوله- تعالي-: "**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**"[4] الآيات المماثلة لذلك في الدعوة إلى التدبر , والتفكر, وذم من أعرض عن التدبر والتفهم لآيات القرآن الكريم, وأكد على أن كل من لم يشتغل بتدبر هذا القرآن العظيم في آيات, أي: تصفحها, وتفهمها, وإدراك معانيها, والعمل بها فإنه يعرض عنها, غير متدبر لها فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات, إن كان ممن أعطاه الله فهماً يقدر به على التدبر, وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن كما قال- تعالى-: "**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا**"[5], وهذه الآيات المذكورة تدل على أن

---

(1) القمر:

تدبر القرآن, وتفهمه, وتعلمه, والعمل به, أمر لابد منه للمسلمين, وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس, كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان ﷺ أنه قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)([1]) وقال تعالى "**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**"[(2)] ، فإعراض ﷺ كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله, وتفهمه والعمل به, وبالسنة الثابتة من أعظم المناكر, وأشنعها, وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى) [(3)] , وذكر – رحمه الله– أن كلام بعض الأصوليين بأن تدبر القرآن, وتفهمه, والعمل به, لا يجوز إلا لمجتهدين خاصة.. قول لا سند له من دليل شرعي أصلاً, بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له القدرة من المسلمين على التعلم, والتفهم, وإدراك معاني الكتاب والسنة, يجب عليه تعلمها, والعمل بها, أما العمل بهما مع الجهل بما يعمل به فممنوع شرعاً, وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح فله أن يعمل به, ولو آية واحدة, أو حديثاً واحداً, ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لا يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس, ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار, وليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول, بل ليس عندهم شيء منها أصلاً فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهد يه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين..... [(4)] وفي ذلك بيان أي بيان عن أن التفهم والتدبر لا يقف عند حد العلماء والمجتهدين وإلا ما كانت توجيهات القرآن وحكاياته عامة موجهة إلى عموم

---

[1] – صحيح البخاري: ج 4 ص 1919.

(2) آل عمران:

الناس وإلا لما كانت توجيهات القرآن إلا لفئة مخصوصة من البشر

- الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة:

من صوارف الفهم عن المعني المراد في القرآن الكريم أن يعتقد الإنسان أن القوالب الفكرية السابقة هي نهاية المطاف, وليس في الإمكان أبدع مما كان, وهذا الفهم يقف بالقرآن الكريم عند عصر معين, وزمان محدد, والواقع أن عطاء القرآن الكريم لا يقف عند حد, ولا ينقطع عند سد, بل يمضي مضي الزمان والمكان, ويبقى ما بقى الليل والنهار.

" إن من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم, فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال, ووضع الأغلال والآصار, والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة, والاغتراف منها لعلاج الحاضر, والامتداد صوب المستقبل, واعتماده مصدراً للمعرفة, والبعث الحضاري: التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي اتخذت من القرآن في العصور الأولى هي نهاية المطاف, وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بها في كل زمان ومكان, وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي, وجعل الرأي دائماً قرين الهوى, وسوء النية, وفساد القصد, وفي هذا ما فيه, من محاصرة للنص القرآني, وقصر فهمه على عصر معين, وعقل محكوم برؤية ذلك العصر, وحجر على العقل, وتخويف من التفكير, الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن[1] ، ولا يشك إنسان بأن خير الفهوم فهوم الجيل الذي شهد له النبي ﷺ بالخيرية, إلا أن هذا ليس هو نهاية الشوط, بل القرآن ومعانيه يتجدد ولا يتبدد, لا يغيض ماؤه ولا يكدر رواؤه وصفاؤه, ولكن يحتاج إلى من يحمل أدوات الفهم السليم, حتى يوظفه في كل

(1) كيف نتعامل مع القرآن: صـ

عصر ومصر, وفي كل زمان ومكان.

وهذ الصارف من صوارف الفهم له بما قبله صهر ونسب, فإذا كان السابق يحول دون ارتفاق معاني القرآن الكريم, وسبر أغواره, والعيش في ظلاله, فإن هذا الصارف يجعل الناظر في القرآن الكريم يقف عند فهوم السابقين, دون محاولة تجديد هذه الفهوم بما جد من معطيات العصر, وتطور الزمان, وهؤلاء الأعلام السابقون, والأئمة الراسخون قالوا أهم ما في زمانهم, وأبرز ما أعطاه لهم وقتهم, ولو كانوا في زماننا ووقتنا لكان لهم مع هذا الكلام رأي آخر, يتناسب مع زماننا ووقتنا, ولا يعني ذلك القفز – كما يقولون على هذا التراث الضخم الذي هو وسيلة من وسائل الفهم, وإنما معناه هضم هذا الزخم العلمي والتراثي الزاخر, حتى نفيد من سناه, ونستضئ بضياه, ونمضي على دربه وطريقه, وقد كان الأستاذ أمين الخولي –رحمه الله– يقول: (أول التجديد قتل القديم بحثاً وفهماً) , وهي حكمة عاقلة رائدة؛ ذلك أن الفهم الحقيقي لا يمكنه أن يتجاوز الفهوم السابقة, بل ينطلق منها, ويبني عليها، أما إنكارها والتبرؤ منها, فهو قطع للجذور, وسد للمنابع, ورفض للأصول, وكما أن ذلك خطأ وخطيئة , فإن الوقوف عند هذه الأصول وحدها, دون الإفادة منها قد يكون عائقاً من عوائق الفهم والفكر والتطبيق والعلم, (فإن الاقتصار على منهج النقل والتلقي يحاصر الخطاب القرآني نفسه, ويقضي على امتداده, وقدرته على العطاء المتجدد للزمن, وإلغاء لبعده المكاني "**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**"[1] , ولبعده الزماني "**وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**"[2] , وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض, والنظر في البواعث والعواقب, باستمرار النظر في الأنفس والآفاق, والاكتشاف الحسن للسنن والقوانين, والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي[3] , وقد

(1) سبأ:

يكون سبب ترسخ هذه القناعة الفكرية في عقول المسلمين ما مروا به في عصور الانحلال والاضمحلال, الذي شمل أبواب الفقه, والفكر, في عصور الضعف والهزيمة النفسية, حتى ينقل الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عن أحد المفسرين قوله: (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة, ولو وافق قول الصحابة, والحديث الصحيح, والآية, فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل, وربما أداه ذلك إلى الكفر؛ لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر) [1] !!. فانظر كيف وصل الأمر بجيل من الناس أن يحصر الفهم القرآني في فترة محددة, وفهم محدد, مع أننا ما أمرنا بقصر فهم القرآن على جيل دون جيل, أو زمن دون زمن, بل طولبنا بأن نوظف الفهم السابق الذي عاشه السلف الصالح, والأئمة السابقون, بما ينفع ما نعيشه في حياتنا المعاصرة, (إن الدعوة إلى محاصرة العقل, والحجر عليه, وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين, هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن, وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر, وأبقى الأقفال على القلوب, وصار القرآن تناغيم وتراتيل, وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم, وتغني الرؤية وتعين على التدبر, أصبح من بعض الوجوه عائقاً, يحول دون هذا كله, وشيئاً فشيئاً تتحول القدسية من القرآن إلى السنة, فنجعل السنة حاكمة على القرآن, ومن ثم انتقلت القدسية لفهوم البشر, وبقي الكتاب والسنة للتبرك)[2]!!،

ولا يعني هذا أننا نريد أن نتجاوز هذا التراث الضخم, من الفهم الراسخ, والإدراك الراسي العميق, الذي توفر له من شواهد النزول, وصحيح المنقول, ما جعله خير الفهوم, كما يقول شيخ الإسلام في مقدمة أصول التفسير, إنما نريد أن نفيد منه, ونستضئ به, حتى نعبر إلى إعمار الأرض, وإصلاح الدنيا بالدين.

---

(1) أضواء البيان: جـ صـ

رمضان- الاشتغال بالمبهمات

للقرآن الكريم منهج رائد في عرض قضاياه, وتصوير مراده من إبراز ما يحتاج إلى ظهور, وإغفال مالا يترتب على تركه فائدة, ولو اتبعت هذا المنهج القرآني الذي سار عليه في عرض القصة مثلاً سنجد أنه لا يذكر المكان, ولا الزمان, ولا الملامح الشخصية, كاملة إلا إذا ترتب على ذلك فائدة, كما أنه لا يقف عند الأسماء والأعداد, وفي ذلك ما فيه من فوائد, كإثارة الذهن, ويقظته, وعدم تقديم الكم المعرفي كاملاً؛ لينشط إلى تتبعه, واحترام هذا العقل البشري, فلا يذكر له إلا مايعنيه, ويفيده, ويجعله عقلاً يحلل ويعلل, ويستنبط, ويكون لديه تلك المهارة والقدرة على الاستنتاج والفهم, وفي ذلك دعوة عملية للعقل المسلم أن يكون في تفكيره وعلمه على نفس هذا المنهاج القرآني العزيز, من هنا ضرب القرآن الكريم الذكر صفحاً عن أشياء لا تفيد العقل المسلم, فإذا أغرق العقل نفسه في هذا المبهمات, وتنكب المنهاج القرآني في التعامل مع القرآن نفسه, وضع بذلك أمام نفسه صارفاً من صوارف فهم القرآن, وهو الاشتغال بالمبهمات, والجري وراء معرفتها, وفي ذلك ما فيه من صرف همة العبد عن الأهم إلى غير المهم, ومن المراد إلى غير المراد.

أهمية عن ذلك إدراك قواعد التفسير تلك التي تعد خلاصات, قدمها رواد هذا العلم, من خلال استقرائهم لآيات القرآن الكريم, وخرجوا بها ليفيد بها المشتغلون بهذا العلم خاصة, والقارئون والسامعون لهذا الدستور بصفة عامة.

وترك هذه القواعد وعدم تطبيقها, أو الجهل بها وشيء من مفردات علوم القرآن يجعل فهم الإنسان للنص القرآني فهماً قاصراً, وإدراكه له إدراكاً باهتاً.

المبحث الرابع معنيات الفهم

أما معينات الفهم, والوصول إلى معرفة معاني القرآن الكريم, بقدر الطاقة البشرية فهي متعددة منها ما يلي:

-المعايشة:

ومن ذاق عرف, ومن عرف اغترف, ومن حرام انحرف,

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها([1])

إن استصحاب القرآن الكريم في القلب والعقل, والتحاكم إليه في صغير الأمر وكبيره باب عظيم النفع من أبواب الإفادة من معاني القرآن الكريم, وهو علامة على حياة القلب, ويقظته, واستعداده للنفع, كالبلدة الآمنة التي (يأتيها رزقها رغداً من كل مكان, أو كمثل جنة بربوة, أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين, فإن لم يصبها وابل فطل)([2])، يقول ابن القيم- رحمه الله-: (من الناس من يكون حي القلب, واعيه, تام الفطرة, فإذا فكر بقلبه, وجال بفكره, دله قلبه وعقله على صحة القرآن, وأنه حق, وشهد قلبه بما أمر به القرآن, فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة, وهذا وصف الذين قيل فيهم: "**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ**"[(3)] وقوله: "**نُورٌ عَلَى نُورٍ**"[(4)] , فهذا نور الفطرة على نور الوحي, وهذا صاحب القلب الحي الواعي, يجمع بين قلبه الواعي وبين معاني القرآن, فيجدها كأنها

---

[1] – انظر المثل السائر, في أدب الكاتب والشاعر, لأبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير: ج1 ص 157,ط المكتبة العصرية .

[2] – البقرة: 265.

(3) سبأ: ﷺ.

(4) النور: من الآية

قد كتبت فيه, فهو يقرؤها عن ظهر قلب, ومن الناس من يكون تام الاستعداد, واعي القلب, كامل الحياة, فيحتاج إلى شاهد يميز بين الحق والباطل, ولم تبلغ حياة قلبه ونوره, وزكا ء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي, فطريق وصول هدا يته أن يفرغ سمعه للكلام, وقلبه للتأمل والتفكر فيه, وتعقل معانيه, فيتعلم حينئذ أنه الحق)[1], إن معايشة الإنسان للقرآن الكريم تفتح له مغاليق الفهم, وتيسر له سبل الوصول إلى مراد الله– تعالي–, وكم من فقهاء ومفسرين عاشوا في ظلال القرآن الكريم في أتون المحن, فأثمرت تلك المعايشة والمخالطة مالا يتيسر لغيرهم في بحبوحة الحياة, وذلك ما كان يذكره ابن القيم من حال شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– إذ يقول سمعته غير مرة يقول: (ما يصنع أعدائي بي, إن حبسوني فحبسي خلوة, وإن نفوني فنفي سياحة, وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله, أنا في صدري كتاب الله وسنة نبيه)([2]), وكم من علماء عاشوا محاور القرآن الكريم وهم في محنة من المحن, فكانت فيوضات وعطاءات دونها عطاء الكتاب والقرطاس, من هنا تعين على المسلم أن يعايش القرآن الكريم معايشة تبرز له معانيه, ويختلط بروحه, وعقله, وفهمه, ووعيه, حتى يصل من الخير إلى ما يريد, إن المعايشة تعين على استحضار الصورة التي يتناولها القرآن الكريم, فيرى أهل الجنان منعمين, وأهل النار معذبين موقوفين؛ لذلك كان أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس حظاً في فهم القرآن الكريم, والانتفاع به, وذلك كما يقول شيخ الإسلام في مقدمته: (لما شاهدوه من القرائن والأحوال, التي اختصوا بها

(1) انظر الفوائد: صـ,

فحصل لهم الفهم التام, والعلم الصحيح) [1] , إن الذي يعايش القرآن الكريم في حله وترحاله, ويطوي معه الزمن, في ليله ونهاره, فيسير في عمق الزمان مضياً واستقبالاَ, ستفتح له كنوز من المعرفة لا يدركها إلا من ذاقها وخبرها, وعندئذ ستتحول حياته إلى حركة وعمل, وعطاء وبذل؛ لأنها ستضاء بمفاهيم القرآن, التي تشبعت بها, وتزن بموازين القرآن, فلا تقدم إلا ما قدمه الله في كتابه, ولا تؤخر إلا ما أخره الله في كتابه, ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا من عاش العيش الحقيقي مع القرآن الكريم, ليترك نفسه تسبِّح مع المسبِّحين, وتستغفر مع المستغفرين, وتذكر مع الذاكرين, وليطلق لها عنان الرؤية, حتى تعايش أصحاب النعيم في نعيمهم, وترى مصارع الغابرين في مهالكهم, وترى إنجاء الله- تعالى- لأصحاب الداعوت والرسالات, على تطاول الأعصار والأمصار, وكم كان سلفنا الصالح- رضوان الله عليهم- يحيون هذه الحياة القرآنية, وكم مر بنا من موقف لهم, يقف الواحد منهم ليلة كاملة مع آية يعايشها ويحققها في نفسه, يقول الإمام النووي -رحمه الله-: (ويستحب له إذا مر بآية رحمة يسأل الله- تعالي- من فضله, وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن العذاب, ويقول: اللهم إني أسألك العافية, أو أسألك المعافاة من كل مكروه, ونحو ذلك, وإذا مر بآية تنزيه لله- تعالي- نزَّه فقال:-سبحانه وتعالى, أو تبارك وتعالى, أو جلت عظمة ربنا, فقد صح عن حذيفة ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة, فافتتح البقرة, فمضى فقلت يركع بها, ثم افتتح النساء فقرأها, ثم افتتح آل عمران فقرأها, يقرأ ترسلاً, إذا مر بآية فيها تسبيح سبح, وإذا مر بسؤال سأل, وإذا مر بتعوذ تعوذ) [2]

(1) مقدمة في أصول التفسير: صـ

ومن صور المعايشة والتجاوب في آيات الله تعالي التي يقرؤها ويتجاوب معها أنه إذا مر بآية فيها صلاة على النبي (ﷺ) صلى وسلم عليه, وإذا مر بآية فيها سؤال يعلمه أجاب كقوله تعالي "**أليس ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى**"[1] قال بلى قادر وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عن الجميع- أنهم إذا قرأ أحدهم "**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى**"[2] قال سبحان ربي الأعلى وعن عمر(ﷺ) كان يقول فيها سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات [3] ولا يصل الإنسان إلى هذه الصورة إلا بمعاينة ما يقرأ ومعايشة ما يتلو, حتى يصير ما يقرؤه حياً أمامه, سواء كان ذلك في عالم الغيب أم في عالم الشهادة, وهذا ما عبر عنه حجة الإسلام الإمام الغزالي بمنزلة التأثر ووصفه بقوله: (وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة, بحسب اختلاف الآيات, فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد, يتصف به قلبه, من الحزن, والخوف, والرجاء, وغيره..., فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته, كأنه يكاد يموت, وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر, كأنه يطير من الفرح, وعند ذكر الله, وصفاته, وأسمائه يطأطأ خضوعاً لجلاله, واستشعاراً لعظمته, وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله- عز وجل- كذكرهم لله -عز وجل- ولداً وصاحبة يخفض صوته, ويكسر في باطنه حياء؛ لقبح مقالتهم, وعند وصف الجنة- ينبعث بباطنه؛ شوقاً إليها, وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها, ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود ﷺ : (اقرأ على قال: فافتتحت سورة النساء, فلما بلغت "**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى**

(1) القيامة:

هَـؤُلاَءِ شَـهِيدًا" [1] , رأيت عينيه تذرفان بالدمع, فقال لـي: حسبك الآن) [2] , وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية, ولقد كان في الخائفين من له أحوال في سماع الآيات فمثل هذه الأحوال تخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه, فإذا قال "**إِنِّـي أَخَـافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّـي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**"[3], ولم يكن خائفاً كان حاكياً, وإذا قال: "**عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَـا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَـا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**"[4] , ولم يكـن حـال التوكـل والإنابـة, كـان حاكيـا, وإذا قـال "**وَ لَنَصْـبِرَنَّ عَلَـى مَـا آذَيْتُمُونَـا**"[5] , فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه, حتى يجد حلاوة التلاوة؛ فإن لم يكن بهذه الصفات, ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان[6] ,وضرب الإمام مثلاً لمن يقرأ القرآن ولا يعايشه بقلبه, ولا يحياه بحسه وروحه, بالذي يقرأ كتاب مليكه, الذي يأمره بإعمار مملكته, وهو ممعن في تخريبها, ومدمن لقراءة الكتاب, وكأن الإمام بذلك يعاين أحوال عموم المسلمين, إلا من رحمه الله, فيقول: (ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره ,مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات, وقد كتب إليه في إعمار مملكته, وهو مشغول في تخريبها, ومقتصر على دراسة كتابه, فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء, واستحقاق المقت, وصور معايشة الجيل الأول وعنايتهم بهذه المخالطة بينهم وبين القرآن الكريم بقوله: (لقد كان شغل الصحابة (ﷺ) في الأحوال والأعمال, فمات رسول الله (ﷺ) عن عشرين ألفاً من الصحابة, لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة, اختلف في اثنين

---

(1) النساء:

منهم, وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين, وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم, ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله –عز وجل– "**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**"[1] قال يكفي هذا وانصرف فقال(ﷺ): «انصرف الرجل وهو فقيه»[2] ' إنما العزيز مثل تلك الحالة التي من الله –عز وجل– بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية, فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى[3]

إن المراد من المعايشة أن يصل القارئ والسامع إلى درجة التواصل الحقيقي مع القرآن الكريم, فيحس بإحساسه, ويشعر بشعوره, وينظر إلى مقاصده وغاياته, ويدنو إلى أهدافه ومتطلباته, ساعتها تكون رسالة القرآن في الحياة قد وصلت إلى الأحياء, ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.(ومن يعايش القرآن هذه المعايشة, ويقبل عليه هذا الإقبال تنفتح النصوص عن رصيدها المذخور, وتتفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة, وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور, إلى قوى وطاقات, وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها تنتفض خلائق حية موحية دافعة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع, وفي عالم الضمير, وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات, ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث فإذا النص القرآني جديد, يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط, ويجيب على السؤال الحائر, ويفتي في المشكلة المعقدة, ويكشف الطريق الخفي, ويرسم الاتجاه القاصد, ويمضي بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه, وإلى الاطمئنان العميق, وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث)[4]

(1) الزلزلة: رجب، شعبان.
(2) الحديث ذكره ابن حبان في صحيحه, جربيع أول صد

ﷺ- حضور القلب:

فكيف يفتح القرآن كنوزه لقلب غافل غير يقظان, أولاه مشغول عن عطاءه وفيضه، إن القلب إذا حضر عند سماع القرآن, أو تلاوته وقراءته, فتحت أمامه مغاليق الفهم, وتبدد لديه كسف الظلام, فإذا بنور القرآن يسرى في عقله, وقلبه, وروحه, ودمه, فيجعله إنساناً آخر, إنسانا قرآنيا, يتحرك بالقرآن شغله ومحياه, ومصحبه وممساه, تتماسك أمامه القيم, ولا تنفلت بين يديه المعايير, وقد كان حال السلف الصالح مع القرآن حالاً يحتاج منا إلى وقفة, فقد كانوا وقافين عند كلام الله, حضور قلب, ويقظة فؤاد, وقد ذكر في قوله- تعالي-: "**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ**"[1] : (أن المراد: بجد واجتهاد, وأن أخذه بالجد أن يكون مجرداً له عند قراءته, منصرف الهمة إليه عن غيره, وقد قيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدت نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسي؟, وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية, وهذه الصفة تتولد عن صفة التعظيم لكلام الله- تعالي-؛ فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به, ويستأنس, ولا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب, إن كان التالي أهلاً له, فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه عنه, والذي يتفرج في المتنزهات لا يفكر في غيرها, فقد قيل: إن في القرآن ميادين, وبساتين, ومقاصير , وعرائس,وديابيج, ورياضاً, وخانات, فإذا دخل القارئ الميادين, وقطف من البساتين, ودخل المقاصير , وشهد العرائس, ولبس الديابيج, وتنزه في الرياض, وسكن غرف الخانات, استغرقه ذلك, وشغل عما سواه, فلم يعزب قلبه, ولم يتفرق فكره[2]. وهو توصيف راق من حجة الإسلام لحضور القلب ويقظته, وعدم مبالاته بما سوى القرآن أو الاعتناء بما عداه.

---

(1) مريم: من الآية

ربيع أول– المدارسة:

وهي صورة من صور الرغبة في تفهم القرآن الكريم, والوقوف على حروفه وحدوده, واستنباط حكمه وأسراره, وقيمه ومعانيه, وهذا ما حث عليه النبي ﷺ , ورغب فيه بقوله: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله, يتلون كتاب الله, ويتدارسون فيما بينهم إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) (1), والمدارسة لون من ألوان اختزال الفكر, واستدعاء المعاني والاجتماع على مائدة قرآنية واحدة, يقطف منها أصحاب ثقافات متعددة, يأخذون منها ما تطيب به نفوسهم, وتصح به عقولهم, وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتدارسون القرآن, ويعيشون حوله بل به, وما أسئلة عمر الفاروق لأصحابه عن معنى (التخوف)(2) ومفاد سورة النصر(3) وغيرها منا ببعيد, فهذه المدارسة تعين على توقد الذهن, وحضور العقل, وتكامل الفكر, حتى يفيد المتدارسون للقرآن أكبر فائدة, فقد قال ابن عباس (الدراسة صلاة), وقال ابن مسعود ﷺ تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها (4) ونقل عن ابن القيم قوله: (ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل) (5) .

وقد كان النبي (ﷺ) يدارس أصحابه فهذه أمنا عائشة رضي الله عنها تدارس النبي(ﷺ) وتسأله فعن ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تفهمه إلا راجعت فيه حتى تفهمه وأن النبي(ﷺ) قال:(من حوسب عذب) فقالت عائشة رضي الله عنها فقلت أليس يقول الله –تعالي– "**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ** *

---

(1) الحديث خرجه مسلم في صحيحه: ج ربيع ثان ص

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا"[1] فقال رسول الله (ﷺ): «إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب). [2]

يقول ابن حجر في الفتح: (وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم معاني الحديث وأن النبي(ﷺ) لم يكن يتضجر من مراجعة العلم وفيه جواز المناظرة ومقابلة السنة بالكتاب– وقد وقع ذلك لغير عائشة).([3])

– صدق الطلب

ولاشك أن صدق القلب والإخلاص والإلحاح في طلب الفهم طريق موصل إلى المراد فإنهم قالوا من أكثر من الطرق أوشك أن يفتح له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: (من تدبر القرآن طالباً الهدى فيه تبين له طريق الحق)[4]، ولم لا والقرآن لا يرضى بأن يكون له من الناس فضل الأوقات, ولا فضل العزمات, وإنما يرضى بأن تعطيه كلك حتى يكشف لك عن بعض كنوزه وعطاياه, ومن صدق الطلب إدامة النظر فيه, والتفكر في كلماته ومراميه.

5– سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها:

إن سلامة التلاوة طريق إلى سلامة الفهم, وإتقان الأداء باب موصل إلى التدبر والتفكر, والترسل في القرآن بترتيل وترتيب معين من معنيات الفهم, ولأمر ما كان جبريل(عليه السلام) يعارض النبي(ﷺ) بالقرآن في كل عام مرة, فلما كان العام الذي توفى فيه (ﷺ) عارضه بالقرآن مرتين ([5])ولذلك قال السيوطي في إتقانه: (إن

---

(1) الانشقاق: رجب، شعبان.
(2) صحيح البخاري : جمحرم صـ,

التحقيق يكون للرياضة والتعلم والتمرين, والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط) [(1)], ولاشك أن الترسل في القراءة والترسل بها يعين على فهم القضية المترابطة, والمعني الواحد, الذي لا يكتمل إلا باكتمال جزئياته, وقد استحب العلماء الترتيل؛ لأنه معين على الفهم كما ذكر حجة الإسلام ذلك في إحيائه وهو يعدد آداب القراءة, فيقول: (الخامس أي: من آدابها الترتيل وهو مستحب في هيئة القرآن.؛ لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله (ﷺ) فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً, حرفاً([2]), وقال ابن عباس (ﷺ) :لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً([3]), وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة وكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله قال هما في الأجر سواء([4]) [(5)] ' كما أن القراءة بترتيب تعين أيضاً على الفهم والتدبر وذلك للترابط الموضوعي الذي هو لون من ألوان الإعجاز القرآني فإن كل آية مع أختها تمثل ربطاً بديعاً ورصفاً محكما يضيع جماله بتقطيعه وكل آية مع أختها لحمة واحدة تمهد السابقة للاحقة وتؤكد اللاحقة على السابقة في تناغم واتساق وكذلك ترتيب السور بعضها بعد بعض لحكمة وغاية حتى قال الإمام النووي رحمه الله (الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها.. ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل هذا ترتيب المصحف إنما جعل هذا لحكمة

---

(1) الإتقان: مَحَرَبُّ/

ينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشروع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى سورة السجدة وفي الثانية سورة الإنسان ونحو ذلك) [1] .

هذا وقد سار أصحاب النبي (ﷺ) على منهاجه- صلوات الله وسلامه عليه- في الترسل والتريث في القراءة والترتيب كذلك, حتى أنكر ابن مسعود (رضي الله عنه) على نهيك بن سنان سرعته في القراءة حين قال: قرأت المفصل البارحة فقال عبد الله: هذًا كهذ الشعر.. [2]

وخلاصة القول أن الترسل في القراءة والتمهل فيها يؤدي إلى ضبط معانيها, وإدراك أهدافها, والترتيب فيها يؤدي إلى ترابط أهدافها, وظهور مقاصدها, واتضاح معانيها, واكتمال فكرتها في ذهن القارئ والسامع؛ من هنا كان الترسل والترتيب في القراءة معيناً من معنيات الفهم.

ﷺ- استظهار القرآن وإدامة النظر فيه:

وهذا أيضاً من الأبواب التي تمهد للفهم وتعين عليه؛ فإن استظهار القرآن واستحضاره يجعل العقل أقدر على تفهم قضاياه, والربط بين محاوره ولعل لمحة من لمحات الإضاءة, أو إلماعة من إلماعات التوفيق ساعة مراجعة أو استذكار رأي لا تكون إلا كصيد الخاطر, أو طير سارح, يحتاج إلى ربط وتقييد ,فهذا الكتاب لا تنتهي عجائبه, ولا تبلى جدته, ومن الأمور المجربة أن المرء يكون قد تلا الآية أكثر من مرة ويتلوها من جديد فيتبين له معني ما كان قد وقف عليه من قبل..؛ إن الاتصال الدائم بالقرآن: تلاوة, وترتيلاً, ودراسة, وحفظاً, من الأمور التي لابد للمفسر من أن ينصب بها, وحفظ العالم للقرآن والاتصال الدائم به يعينه في تفسيره القرآن بالقرآن, ولا تسد المعاجم الموجودة مسد الحفظ أبداً..(وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر

(1)التبيان في آداب حملة القرآن: صـ

بصورة دائمة توقف المفسر على كنوز لا حصر لها, فقد ينقدح في نفس القارئ مرة من المعاني في تفسير آية ما لم يكن يخطر باله من قبل, وربما يكون المعنى الذي وقف إليه لم يتناوله أحد من قبل)[1] ؛ إن إمعان النظر في هذا الكتاب الكريم يكشف فيه كل يوم عن كل جديد وسيظل معطاءً زاخراً ما توالي الجديدان, وتتابع الحدثان, فكل عصر من العصور يضيف إلى فهوم السابقين فهماً جديداً, وكل لمسة من مفسر تضيف جديداً, وتفيد حميداً, من هذا الكنز الذي لا يذهب رواؤه, والمعين الذي لا ينضب ماؤه, وهي معجزة من معجزات الله- تعالي- للبشر على مر الأيام, وتتابع السنين.

ﷺ- صلاة الليل:

قيام الليل بالقرآن من أقوى الطرق الموصلة إلى فهمه ومعرفته, ولم لا؟ والليل باب الخشوع والخضوع, فيه يستأنس المحبون بمحبوبهم, ويستوحشون من زحمة الدنيا في نهارهم, حتى ما يجدون راحة أنس, ولا حلاوة مناجاة, إلا في تلكم الأوقات التي لا أنيس فيها ولا جليس, ولا رقيب ولا حسيب, إلا علام الغيوب- سبحانه وتعالى- فيفرون من زحمة الدنيا, وصخب الحياة, وضجيج الناس, وتهارشهم على الحياة, ومتعها, وزخارفها, إلى هدأة الليل وسكونه؛ فإنه للصوت أسمع, وللقلب أخشع, وللعين أدمع, وإلى ستر العيوب عن الخلق أقرب، ولأمر ما كان قيام الليل في حق النبي (ﷺ) والجماعة المؤمنة الأولى فرضاً, حتى نزل التخفيف عن الأمة, وبقي في حق النبي (ﷺ) فرضاَ إلى أن مات, ولك أن تعيش قوله- تعالي-: "**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً**"[2] ، (فإن

(1) بحوث في أصول التفسير, صـ

مغالبة هتاف النوم, وهتاف وجاذبية الفراش, بعد كد النهار, أشد وطئا, وأجهد للبدن, ولكنه إعلان لسيطرة الروح, واستجابة لدعوة الله– تعالى– وإيثار للأنس به, ومن ثم فإنها أقوم قيلا؛ لأن للذكر فيها حلاوته, وللصلاة فيها خشوعها, وللمناجاة فيها شفافيتها, وإنها لتسكب في القلب أنسا, وراحة, وشفافية, ونورا, قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره, والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره, ويعلم ما يتسرب إليه, وما يوقع عليه وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا, واستعدادا, وتهيئا؟, وأي الأسباب أعلق به, وأشد تأثيرا فيه؟, والله– تعالى– وهو يعد عبده ورسوله محمدا– صلى الله عليه وسلم– لتلقي القول الثقيل, وينهض بالعبء الجسيم, اختار له قيام الليل؛ لأن ناشئة الليل هي أشد وطئا, وأقوم قيلا, ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه, الذي يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات)([1]) , وقد قال ابن عباس ﷺ قوله– تعالي–: "**وَأَقْوَمُ قِيلاً**" قال: هو أجدر أن يفهمه القرآن, ويقول ابن حجر– رحمه الله– عن مدارسة النبي (ﷺ) في كل ليلة من رمضان: المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك, لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية([2]) , وهناك من الشواهد ما يدل على اقتران قراءة القرآن بالليل فمنها قوله تعالي: "**يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ**"[(3)] , وقوله ﷺ:(من نام عن حزبه فقرأ فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب كأنما قرأه من الليل)[(4)]

ﷺ– التحلي بأخلاق القرآن قولاً وعملاً:

والتحلي بأخلاق القرآن, والتطبع بصفاته التي أرشد إليها, باب من أبواب التفاعل مع هذا الكتاب الكريم, الذي لا يفتح كنوزه– بحق إلا لمن عاشه, وعايشه

---

[1] الظلال: ج6 ص 3745و3746.

[2] – فتح الباري: 9– 45

(3) آل عمران:

معايشة فعلية, لا معايشة ثقافية, ولا فكرية فحسب, فكم رأينا من ومضات وتذوقات لأفراد بضاعتهم في علوم القرآن وأصوله ليست كبيرة, ولكن طباعهم وأخلاقهم مصدرها القرآن, ومراجعها هذا الدستور الإلهي الكريم وهذا ما عاشه بحق سلفنا الصالح حياة حقيقية ,(فالمرء لا يستطيع بمجرد فهم ألفاظ القرآن وإدراك معاني جمله فقط أن يصل إلى إدراك التفاعل النفسي الذي ينطوي عليه رجال السلف الصالح, عندما تعاملوا مع هذا الكتاب.. هناك أشواق, وتذوقات وإشراقات, وومضات, ونفحات, وفتوحات, لا يتوصل إليها المرء بمعرفة الألفاظ والمعاني, بل لابد له من أن يعيش نفسه في نور تلك التذوقات والومضات, ولن يكون ذلك إلا بالإيمان العميق النامي, والعمل الصالح والخلق الحسن..)([1]),(إن أصحاب النبي ﷺ لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة, ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته, إنما كان يتلقى القرآن ليلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها, وشأن الحياة التي يحيا ها, هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه, كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر ا ليومي، ليعمل به فور تلقيه, ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة؛ لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه.., وهذا الشعور شعور التنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من الانتفاع, وآفاقاً من المعرفة, لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع, وكان ييسر لهم العمل, ويخفف عنهم ثقل التكاليف, ويخلط القرآن بذواتهم ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى نهج واقعي, وإلى ثقافة متحركة, لا تبقى داخل الأذهان, ولا في بطون الصحائف, إنما يتحول أثاراً وأحداثاً, تحول خط سير الحياة. إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح, روح المعرفة المنشئة للعمل, إنه لم

(4) بحوث في أصول التفسير:

يجئ ليكون كتاب متاع عقلي, ولا كتاب أدب وفن, ولا كتاب قصة وتاريخ, وإن كان هذا كله من محتوياته إنما جاء ليكون منهاج حياة, منهاجاً خالصاً, وكان الله- سبحانه- يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً)[1] , وهذا التطبيق العملي الصادق, والطلب الجاد في تنفيذ تعاليم القرآن في الحياة هو ما جعل الجيل الأول الرائد من أصحاب النبي ﷺ من أكثر الناس فهما لهذا الدين, حتى تجاوبوا معه وقت نزوله, فتلفظوا بألفاظه, وألهموا أحكامه, وتوقعوا توجيهه وإرشاداته, وما موقف عمر وإلهاماته منا ببعيد, ليس ذلك فراسة عمرية فحسب, ولا حدساً عربياً ذكياً فقط, لكن أيضاً شعور خالطه توجيهات القرآن فكانت أوامره ونواهيه مصبحهم وممساهم, يتفكرون فيها في خلواتهم ويستذكرونها في جلواتهم, وكم مرة يخطر ببالي أن هذا الجيل الرائد كان أنموذجا طبق عليه ربنا- عز وجل- ما ينبغي أن يتحلى به الجيل الذي يعمر الحياة, وينير الأرض, ويوقظ خيرها بمنهاج الله -عز وجل-, فمن أراد أن يفهم كما فهموا, فليعش كما عاشوا, وليعمل بما عملوا, فهذه هي الجادة فأين السالكون؟؟.

(1)انظر معالم في الطريق: ص

الخاتمة

أسأل الله حسنها

وبعد فهذه رحلة ضرورية حول فهم القرآن الكريم, بين القواعد التي تضبط العقل من الزيغ والهوى, وتعصمه من الوقوع في مهاوي الفكر ومحظورات التفسير, وبين المزالق التي إن عرفها المفسر والقارئ ليتجنبها نجا من شرك التفسيرات الخاطئة, والمخطئة, وقد دارت هذه الدراسة المبسطة حول عدد من القواعد, وركزت على ضرورة الفهم الصحيح للقرآن الذي هو الدستور الخالد للأمة, وخلاصها, وسر نجاتها وعزتها, وهذا الفهم لا يقل أهمية عن عناية المسلمين بالشكل والأداء, بل إن الشكل والأداء خطوة إلى الفهم والإدراك, كما أكدت الدراسة على أن واقع المسلمين المر الذي يعيشونه سبب من أسبابه ضعف صلتهم بهذا الكتاب الكريم, الذي أخرج أمة من العدم, وأعزها بعد ذل ووحدها بعد فرقة وشتات, ولا يقصد بذلك ضعف صلتهم به من ناحية حفظه واستظهاره, أو إتقانه وأدائه, فهذا جانب قد أخذ حظه الغامر, ونصيبه الوافر, ولكن يقصد ناحية الوصول إلى الفهم السليم, والإدراك القويم لمرامي هذا الكتاب الخالد.

ثم عرضت الدراسة لبعض العقبات التي تعرقل عملية الفهم السليم, وتناولت بعض المعينات, التي تجعل الإنسان أقدر على فهم القرآن, والتواصل معه, وكلي أمل أن يلتفت الناس عامة, والمسلمون خاصة إلى عقد صلة وثقى, وعروة كبرى بينهم وبين القرآن حتى يسودوا الدنيا, ويقودوا العباد إلى طريق الله عز وجل.

توصيات البحث:

هناك بعض التوصيات التي خرج بها البحث بعد هذه التطوافة السريعة حول هذا الموضوع من أهمها:

1-عناية القائمين على دور التحفيظ بجانب الفهم كما عنوا بجانب التلقين والتحفيظ, فإن الحفاظ على نصوص القرآن ليست غرضا لذاتها, خاصة وقد ضمن الله بقاءه.

2- أن يعنى القائمون على مناهج الجامعات والمختصون في مناهج الدراسات القرآنية بجانب الفهم القرآني في برامجهم وخطتهم.

3- أن يعنى العلماء والكاتبون بالجوانب التي تيسر الفهم القرآني وتعين عليه, ولقد يسر الله القرآن للذكر فلنقدمه للناس غضا سهلا كما أراد الله.

4-العناية بالتفاسير التي تعين على تبسيط المعنى ونشرها بين المسلمين ما دامت تمضي على منهاج أهل السنة.

5- وضع برامج إذاعية وتلفازية وفضائية تعنى بتيسير الفهم لعامة المسلمين.

6-العناية بتكوين جيل رائد يربى على أيدي العلماء العاملين يتشرب منهم الفهم الصحيح للقرآن وينشر هذا الفهم في الناس بشتى الوسائل.

والله من وراء القصد,

رمضان خميس الغريب

حائل – المملكة العربية السعودية- رمضان

فهرس المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا:

الإتقان في علوم القرآن, لجلال الدين السيوطي, ط: المكتبة الثقافية, بيروت لبنان بدون.

إحياء علوم الدين, للغزالي, ط: المكتبة العصرية, صيدا بيروت

تدبر القرآن, د سليمان السنيدي ط: المنتدي بمكة , ط الثانية

العجاب في بيان الأسباب, للإمام أحمد بن علي بن حجر, ط: دار ابن الجوزي, الدمام, ط أولى

مدارج السالكين, لابن القيم, ط: دار الجيل, بدون.

مـدخل لدراســة القـرآن الكـريم, د.محمـد محمـد أبــي شــهبة, ط: دار الجيـل

الوابـل الصـيب, لابـن القـيم, ط: دار الكتـاب , بيـروت لبنـان, ط أولـى

القاعدة الحادية عشر فهم حقائق الألفاظ المفردة

6-استظهار القران وإدامة النظر فيه